كتب السفير العربي
N° 2 - 2021

حكايا من اليمن

ريم مجاهد

عـن الحـبِّ في اليمـن، عـن جمـوح الفتيـات المختنقـات بقيـود لم يعـدن يردنهـا، وعـن أساليبهن للتخلـص مـن ربقـة الرقابـة العائليـة والمجتمعيـة، عـن الاضطهـاد الـذي يلحـق بهـن ودور أمهاتهـن في حراسـته، عـن مكانـة النسـاء في مجتمـع ذكـوري، عـن بـؤس "المهمشـين" مـن ذوي البـشرة الداكنـة، عـن الجـوع، عـن القتـل، عـن ثقـل الخـوف في ظـل صراعـات سياسـية منفلتـة... وعـن الحـرب وانحطـاط المـدن.

يمكـن قـراءة كل فصـل مـن فصـولِ هـذه الروايـة المتسلسـلة بمفـرده، ويمكـن كذلـك قراءتهـا كوحـدة ليـس لهـا بالـضرورة نهايـة، وإن كانـت الكاتبـة ترسـم لنـا منـذ اللحظـة الأولى خـط بدايـة مـا، فتتحـدث عـن كلّ ذلـك، عـن الصـورة الكبرى لمجتمـعٍ كامـل وعـن تفاصيـل حيـاة الأفـرادِ الحميمـة في آن...

لوحة الغلاف: منى نخلة - لبنان

RECOUPEMENTS تقاطعات

السفير العربي
www.assafirarabi.com

كتب السفير العربي

Nº 2

2021

RECOUPEMENTS
تقاطعات

السفير العربي
www.assafirarabi.com

تقاطعات

تقاطعات جمعية مسجلة في لبنان، هدفها الاضاءة على مواقع مقاومة الخراب في العالم العربي، الذي تجتاحه الحروب وتعاني مجتمعاته من الافقار ومن أشكال متنوعة من العنف. المشروع الرئيسي ل"تقاطعات" هو المجلة الالكترونية "السفير العربي" التي تأسست في العام 2012

السفير العربي

السفير العربي" منصة إعلامية مستقلة، توفر تحليلات تخص العالم العربي بأقلام كاتباتها وكتابها وجميعهم فاعلون في مجتمعاتهم، منغرسون فيها ومعنيون بشؤونها.

ويحرص السفير العربي على تقديم تلك النصوص الجادة والجديدة بلغة يسيرة لكل القراء وليس للأكاديميين فحسب.

هدف المنصة هو التقاط تعبيرات الواقع عن نفسه حتى عندما تكون متوارية لاسباب مختلفة أو تكون في حالتها الأولية، وبالاخص منها محاولات مواجهة الخراب القائم.

ولا يستثني "السفير العربي" من دائرة اهتمامه أي جزء من المنطقة العربية ولا أي فئة، ولا يخضع لأي رقابة أو ضغوط.

حكايا من اليمن

ريم مجاهد

كاتبـة وباحثة وصحافية من اليمن

© تقاطعات / السفير العربي 2021

مقدمة

ريـم مجاهـد كاتبـة وباحثـة وصحافيـة مـن اليمـن، نـشر لهـا السـفير العـربي خـلال الأشـهر الأولى من 2018 روايـة متسلسـلة مـن 6 حلقـات عنوانها "اليمن بعدسـة ريم مجاهد"، وكانـت الحرب في بلادها لم تسـتفحل بعـد بالشـكل الـذي دفعهـا في أواخـر العـام 2019 الى كتابـة روايتها المتسلسـلة الجديدة، التـي حرْنـا كثـيراً في اختيـار عنـوانٍ لها، فهي مجـدداً "اليمن بعدسـة ريـم مجاهد"!

ولكـن بـلاد ريـم اليـوم صـارت أقـسى وأشـد تشـعباً في مصائبها، وصـارت الشـابة أدرى بشـعاب اليمن مـن فـرط التفحـص والمتابعـة والخـوف على المـكان والأهـل والأصدقاء، فصـار نصها المتتابـع أقرب إلى الدراسـة السوسـيولوجية، محتفظـاً عـلاوة على ذلك بإبـداع الخيال والأسـلوب.

يتعـرف القـارئ إلى شـخصيات عديـدة سـاحرة في تعـدد وجوههـا، وفي تناقضاتهـا وطموحاتهـا. كثـير منهـا مـن النسـاء الشـابات، ومعهـن مـن هـنّ أقـل شـباباً، ولكن هنـاك أيضاً شـبّان ورجـال. وتتفحص الروائيـة مواقفهـم عـلى ضوء "انتماءاتهم"، والى العلاقات المنسـوجة بينهم جميعاً، مـن خيوط التقاليد والمصالـح والحسـابات والأمزجـة، وكذلـك الظـروف. نتعـرف إلى صنعـاء العاصمـة، وإلى "القريـة"، وإلى دواخـل البيـوت والمقاهـي والحدائـق والمؤسسـات... إلى الفروقـات الطبقيـة والعرقيـة والثقافيـة والجندريـة والعمريـة... 24 حلقـة تبـثّ في القـارئ انفعالاتٍ تتراوح مـا بين الفضول والدهشـة والتأثر بمـا "يرى"!

موت

كانـت الحـرب هـي الحـدث في تلـك المرحلـة. أعيدت جثـث كثيرة من جبهـات القتال، تطـوّع عشرات الشـبان والمراهقـين مـن الذيـن لم يجـدوا قـوت يومهـم، في محاولـة للنجاة من المـوت جوعـاً أو كمداً. لكـن مـوت ماجـدة كان حدثـاً آخـر، حدثـاً يخـص القريـة ذاتهـا. لم تقتلها الحـرب، ولم يكـن هناك أي توقعـات لمـوت غريـب كهـذا. صراخ والدتهـا المفـزع أكـثر مـن الحـدث نفسـه لحظـة اكتشـافها جثـة ابنتهـا الطافيـة، جعـل النـاس تتهافت مـن كل حدب وصـوب. كان الوافدون تباعاً يسـترقون النظر من الكـوة الصغـيرة للحـوض الإسـمنتي ليتأكـدوا مـراراً أن الجثـة بفسـتانها الملـون مـا زالت تطفـو هناك. ولم يكـن ذلـك تأكـداً بـل الفضـول الإنسـاني، كأن مـا سـيرونه هنـاك لـن يكـون جثـة لمراهقـة ضئيلـة الجسـد، بـل وحـش المـوت وقـد تحولـت إليـه. ولأن لا أحد يملك معـدات تسـتطيع إفراغ الخـزان من مياهـه بسرعـة، كانـت الطريقة الوحيـدة أمامهم هي أن يفرغوه باسـتخدام أنابيب المـاء الرفيعة التي جلبوهـا مـن قريـة مجـاورة. ألصقـت الأنابيب ببعضهـا وبدأت تفريـغ المـاء إلى الخارج.

بعـد سـاعتين مـن الزمـن، بـدا أن مسـتوى المـاء لا ينخفـض. أثـار ذلـك مـن جديـد عاصفـة اقتراحات، واتفقـت الأغلبيـة عـلى أن الجثـة لا محالـة سـتتعفن في المـاء، وأنـه بهـذه الدرجـة من البـطء في إفراغ الخـزان مـن مائـه، فإنهـم سـيضطرون للانتظار عـلى الأقل يومـاً كاملاً. كانـت ماجدة قد ماتـت، وهذا أمـر تعامـل معـه الجميـع، بمـن فيهـم والدهـا وإخوتهـا بتسـليم، وكأنـه حقيقـة منـذ بدايـة الحيـاة، وتبقـت المشـكلة فقـط في ألاّ تتعفن. وهكذا توصلـوا أخيراً إلى أنه بجانب الأنابيب البلاسـتيكية، فإنهم سيسـتخدمون السـطول البلاسـتيكية لإفـراغ الميـاه يدويـاً. وبـدا ذلـك الاقـتراح مخبـولاً وغـير منطقي، لكنـه في يـوم كذلـك اليـوم، تُصبـح الطاقـة البشريـة هـي مـا يحتفـي بـه الناجـون والأحيـاء لنقـض المـوت والسـكون الذي أحـاط بهم. وبنـداءات متفاوتة للبيوت، جُمعت السـطول البلاسـتيكية، واتخذ الرجـال مواقعهـم عـلى درجـات الخـزان. شُـمرت السـواعد وانقض الرجـال يفرغـون الخزان.

بعـد سـاعة، وتحـت شـمس لاهبـة، بدا كذلـك أن مسـتوى الميـاه ثابت لا يتزحزح سـوى لسـنتيمترات قليلـة. كان الخـزان كبـيراً وممتـداً، ومهـما حملـت السـطول من مـاء، ومهـما تدفق مـن الأنابيب، فإن

القـوة البشريـة لم تكـن كافيـة لإفراغـه. مـات الكثير مـن أبناء القـرى في جبهات غير معلومـة، ولم يكن أحدهـم قـد شـعر باليـأس، لكـن «عـلي» الـذي كان يقف بعيـداً شـيئاً مـا، ولم يتدخل بعـد، كان لديه رأي آخـر، اقترحـه بينـه وبـين نفسـه في البدايـة، وظـل يجوب سـطح الخزان يقيـس طوله. أخـيراً تقدم ضامـاً قبضتـه اليسرى بسـبب التوتـر، واقترح عـلى الواقفين أمام الباب: أسـتطيع السـباحة وجر الجثة. لم يفهـم أحـد مـاذا قـال في البدايـة، لأن صوتـه المهـزوز كان غريبـاً ولأن أحـداً لم يتوقـع هكـذا اقتراح. وحـين كـرره بصـوت أعلى، شـعر هـو بثقة أما هم فقـد صرخوا معترضـين دون حتى أن يفكـروا بالأمر. قـال أحدهـم أنـه لا داعـي لانتشـال جثتـين.. جثـة واحـدة كافيـة. وقـال آخـر أن هـذه ليسـت ميـاه البحـر، إنهـا تبتلـع البـشر كونهـا سـاكنة بـلا حـراك. وقـال آخر أنـه لا داعـي لمحـاولات البطولـة.. كان كل اعـتراض يعطـي عـلي دفعـة إصرار، وكان رده ثابتـاً ومقنعـاً: «ليـس انتحـاراً، أنـا سـبّاح جيـد وأنتم تعلمـون ذلـك، سـأربط نفـسي بحبـل فإن أحسسـتم بي أغـرق اسـحبوني، لن أموت فـوراً».

وافقـوا عـلى مضـض، منهـم مـن كان خائفـاً عليـه ومنهـم مـن لم يـرد لـه أن يصبـح بطـلاً. حتـى في يـوم غريـب كذلـك اليـوم، شـعر بعضهـم بالحسـد، ذلـك الحسـد الـلاإرادي الـذي يدفع أحشـاءك لأن تحـترق بهـدوء ولوقـت طويل. شـدّ عـلى خصره الحبل القـذر، وهي مجموعـة حبال موصولـة ببعضها البعـض تسـتخدمها النسـوة في جمـع الحطب، أو كمربـط للمواشي. خطا بقدميـه العاريتين على الدرج الإسـمنتي للحـوض متجهـاً صـوب المنطقة المظلمة. كان شـكل الحـوض عبارة عن حـرفL ، يقع الباب في القاعـدة القصـيرة لـلL ، ثـم تنحـدر منـه عـدة درجات للأسـفل. وعنـد بداية السـاق الطويلـة تبدأ الحفـرة العميقـة المطليـة جيـداً بالإسـمنت حتـى لا يتـسرب المـاء إلى الأرض. لم يكـن الخـزان ممتلئـاً. بعـد بضـع درجـات فارغـة، بـدأ المـاء يغمـر خـصر عـلي. ماء بـارد كثيف لا يشـبه مـاء البحـر في شيء. كان خائفـاً ويريـد البـكاء لسـبب آخـر غـير أنـه يغامـر بحياتـه. كانـت أمـه تزعـق في مكان مـا منادية إيـاه أن يعـود، لكنـه مـضى مندفعـاً ببـطء يفكر بصدفـة القدر التـي أعادتـه للقرية منـذ يومين فقط.

حـين لم تجـد قدمـا عـلي درجـة تدوسـان عليهـا، تحـول الرعب لـشيء غريـب. داهمته فجـأة ذكريات مـن الطفولـة البعيـدة، وعـادت ماجـدة راعية أغنـام صغيرة، تخيلهـا تنزلق في الغبش، تهوي بجسـدها الصغـير في الميـاه، تقـاوم، تـصرخ، تختنـق ثم تطفـو بهدوء.. فـرد علي ذراعيـه في مواجهة المـاء الثقيل، ودفـع بنصفـه الأسـفل للأعـلى، لم يكـن يكـذب حينـما قـال أنـه سـباح ماهـر، لكـن رؤية جثـة ماجدة الطافيـة أمامـه جعلـت البحـر شـيئاً قزمـاً أمـام مـا هـو فيـه. لم تكـن الجثـة بعيـدة لحسـن الحـظ، لم يعـرف كيـف سـيجرها، أي يـد إضافيـة سيسـتخدم، مرعوبـاً مـن أن تلتهمه الميـاه. دار حـول الجثة ثم دفعهـا بسرعـة أمامـه، لم يكـن دفعهـا يسـتغرق كثـيراً، بقـي هـو عـلى حالتـه دون أن يغـرق، واسـتمر حتـى عـاد لمنطقـة درجات السـلم. وهنـا صرخ الرجـال هابطين الدرجـات الضيقة بسرعـة. لم تكن كل بسـطة تتسـع سـوى لشـخصين منحنيـين، لكـن المـكان اكتـظ حتى شـعر عـلي أنه يغـرق فعلاً بسـبب الاختنـاق. تناولـت الأيـدي الجثـة وتجاهلـت عـلي، الذي انسـل خارجـاً بملابسـه الداخليـة، وحين كان يرتـدي بنطالـه كاكي اللـون، لاحـظ أن الجثـة لفُّـت ببطانية جديـدة، لم يعرف علي من أيـن جيء بتلك

البطانيـة فجأة.

قبـل أن يُخبّـأ، بـرز وجـه ماجـدة. عينـان جاحظتان هـرع الأب لإقفالهما، وبـشرة بيضاء لشـابة ضئيلة ميتـة. تهامـس رجـلان يتسـاءلان كيـف انزلقـت المسـكينة في الصبـاح الباكـر، وارتبـك أحدهـم وهـو يقـترح أن الغريـق شـهيد، واكتفـى الإخـوة بدمدمـة غريبـة فيـما بينهـم، ينـادون بصـوت خفيض على أخيهـم الأصغـر: وحيـد وحيـد، الـذي كان يُفكّـر بأنـه حزيـن ولم يـرد لماجـدة أن تمـوت، لم يـرد لا لابتسـامتها ولا لوقاحتهـا أن تمـوت. كان يتأمـل في الحضـور، وتأكـد بـأن أخويـه الاثنـين منزعجـين جداً بشـكل لا علاقـة لـه بالحـزن. طلبـوا منـه بصوت خفيـض أن يأخـذ أصدقـاءه ويذهب بهـم إلى الجبل، وإلى أرضهـم بالـذات، وأن يجـدوا هنـاك مكانـاً صالحـاً للحفـر، ثـم أن يحفروا قـبراً هنـاك. كانت فكرة الأخ الأوسـط جـمال، لم يكـن لـدى وحيـد لا الوقـت ولا القـدرة ليناقـش. بـدا وجـه جـمال متوحشـاً، أشـعث الشـعر أحمـر العينـين. انطلـق وحيـد برفقـة عـلي وأخريـن. عـلي الذي مـا إن سـمع الحديث عـن القـبر حتـى اقـترح مـرة أخـرى عـلى نفسـه أنـه ذاهـب. عـادوا أولاً إلى القريـة ليأخـذوا المعدات، ثـم اتجهـوا صـوب الجبـل. لم يكـن هنـاك من حوار يـدور بينهـم، كل عـلى طريقته كان يفكـر بالموت وكيـف سـيموت هـو شـخصياً، وما إذا كان مسـتعداً أم لا. حـين وصلوا الأرض المحـددة، بدأ جدل حول أي بقعـة سـتكون المـأوى الأخـير لماجدة، علق عـلي بإهمال: «لنختر أرضاً مناسـبة سـتكبر فيها البنت».

نادية

ليس لدى نادية لون مفضل. لا تفضيلات بشكل عام. لم تكتشف هذا إلا عندما كبرت، فالآخرون لا يعرفون.. كانت تجيب على أسئلة التفضيلات، لكنها تكذب. ففي كل مرة تقول إجابة مختلفة، فيذكّرها أحدهم بها. وعلى هذه المسافة تقف نادية من كل شيء في حياتها، عائلتها، أخواتها بالأخص، فهي الوسطى بين أربع أخريات، لم يؤثر فيها إلغاؤها أو استبقاؤها بعيدة. كان الترتيب كالتالي: بنت بنت ولد بنت ولد بنت بنت

ظلت المسافة العمرية بين الشقيقات سبباً كافياً للتكتلات. الكبيرتان حزب وحد، والصغيرتان كما الكبيرتان، ونادية بعد أن توفي الولد الذي يصغرها، بقيت معلقة في فراشها الذي يتوسط الجميع. ووّلد لديها هذا الوضع شعوراً بأنها نجمة بحر ملصقة في حائط. كانت قد شاهدت ذلك الملصق في غرفة نوم إحدى صديقات أمها حين كانت أصغر. لكن هذه الوحدة لم تزعجها. تمضي حياتها بالرتابة المعهودة لدقات ساعة. الأشياء ذاتها والمواقف والأحاديث وإعلانات التلفزيون، ووجنة أبيها المنتفخة بالقات، وبجاحة ودلال الأخ الوحيد الذي كان حديثه يتراءى لها كالقيح اللزج كلما فتح فمه للكلام. يتطاير ذلك القيح اللزج ملتصقاً بكل شيء، وتحاول نادية بكل الطرق أن تبقى بعيدة عن طريقه، عن طريق القيح، لأنه يبقى عالقاً عليها طوال فترات ما بعد الظهر والمساءات العادية.

حين وصلت الجدة المشلولة للمدينة، كان لديها بقايا من صوت. تأملت نادية كل تفصيل فيها بذلك الحياد نفسه. الأخاديد العميقة في الوجه والعنق، الصدر المسطح لعجوز ثمانينية، الشعر الرمادي الهش، محكم الإخفاء تحت مصر» أحمر بخيوط ذهبية على الأطراف. كانت أصابعها معقوفة عاجزة، وعيناها الغائرتان تبحثان في كل مكان ثم تقفان على وجه ما بجزع. مجيئها صنع أحاديثاً كثيرة بطريقة ما، وأعاد حكايات دفينة، أو فلنقل حكايات مجهولة بالنسبة لنادية وأخواتها. كانت الأم قد حاولت قطع كل صلة بحكايات القرية بعد أن هاجرت عائلتها واحداً تلو الآخر إثر رحيلها مع زوجها. وهكذا لم يبق من داع لأي صلة بالقري،، كل الصلة كانت في

تحيات الأعياد ورمضان، مجاملات كاذبة كانوا يقومون بها جميعاً. لكن الأم كانت واحدة من تلك العائلة، تعرف تماماً الحكايات والعلاقات والخفايا، لقاؤها الأول بالجدة كان مليئاً بالشفقة الصادقة، وكانت تعرف أن العجوز لا محالة ستكون جزعة بهذا اللقاء الغريب غير المتوقع بعد سنين من الجبروت والمواجهة. ركزت العينين الخائفتين محجريهما في وجه زوجة الابن التي بدت أصغر مما توقعتْ أن تراها، ولم تصدق العجوز الشفقة التي بدت واضحة على كنتها، ولم تكن لتصدق الدموع التي ذرفتها الأم في المطبخ بحضرة بناتها الخمس. بكت الأم من هول المفاجأة ومشاعر أخرى كالخوف والسعادة الخفية. كانت هذه العجوز يوماً ما أقوى شخص عرفته الأم، قالت لبناتها أن هذه العجوز كانت فعلياً « الجبل الذي لا يهزه ريح»، ولم يكن الزوج غير متفرج مسلوب الإرادة. ثم زوّجت أبناءها وفرضت عليهم أن يعيشوا بجوارها، واستعبدت نساءهم في عمل الأرض وعمل البيت، صنعت لهن جدولاً من الأعمال لم تكن إحداهن لتتجرأ على مخالفته، وأعلنت لهن بصراحة أنها قادرة على تزويج أبناءها مثنى وثلاث إنْ هن أعترضن. وحين أكمل «عثمان»، زوجها، تعليمه الجامعي، وكان أول شخص يحقق هذا من قريته، أعلنت الأم للزوجة التي كانت أماً لفتاتين في ذلك الوقت، أن الزوج الجامعي لن يستطيع العيش مع إمرأة أمية مثلها، وأنه ولا شك يريد أن يكمل حياته مع إمرأة من مستواه. حكت الأم لبناتها كيف أنها ظلت لشهور طويلة تبكي في الليالي والنهارات مصدّقة حقيقة أن الرجل الجامعي لابد وأن يعيش مع امرأة جامعية مثله وأن نهايتها ستكون الطلاق وستكون أول حالة طلاق في عائلتها.

اتفقت الفتيات ومعهن نادية، وهي التي بدون تفضيلات، بأنهن يشعرن بنوع من الإشمئزاز بسبب وجود العجوز. لم تعرف الصغرى فاطمة ماذا يعني بالضبط «اشمئزاز» ولماذا يشعرن به. كانت جدتها تظل تنادي عليها بحنان وتغمرها بالدعوات، وهكذا تفعل مع الأخريات. لكن الصغيرة كانت تحمل اسمها، وكان يعجبها أن تجلس بجانبها على السرير الذي يعلو ويهبط و يتحول لكرسي. وفي ساعات اهتزاز البيت بسبب القصف كانت الجدة تتلو دعواها الصادقات بأن يحمي البيت ومن فيه، وكانت نادية تتخيل أن تلك الدعوات تتحول لسقف هلامي يحمي البيت من القصف، فتعبر الطائرات فلا تراه، ويمر مسلحو الميليشيا فلا يشاهدون باب عمارتهم الصدئ. ولم يعترض أحد على دعوات الجدة وضجيجها وقت القصف، كان فزعها العجوز يتحول لطمأنينة بالنسبة للآخرين، تتجمع الحفيدات حول سريرها، ويجلس الأب بكرشه الكبير على كرسي قديم في مواجهة السرير، وتظل الأم تعدو بين غرفة الجلوس وغرفة الولد الوحيد الذي يرفض أن يشارك الجميع جلستهم المضادة لرعب القصف وهدير الطائرات.

تكبر الحكايات في حياتنا كالأشجار المتسلقة. والحكايات ليست كالأحلام، نعرف تماما بداياتها والشعور المصاحب لها، نستطيع تكملتها إن لم يكملها لنا الراوي، ونحتفظ بالشعور المصاحب لها. ونادية التي تستخف بكل شيء، لم تكن تستمع لشيء من تخاريف جدتها. تجلس بجانبها متى حان دورها، تؤجل شحن هاتفها كي تنشغل به حينما تكون مع الجدة. في الأحايين التي يكون

فيها صوت رصاص في الخارج، تطلب نادية من الجدة أن تحدثها عن أشياء من القرية. كانت نادية تطلب ذلك، كي يبدأ خيالها العجيب بتصوير الأشياء بشكل سوريالي وتنسى أين هي فلا تسمع صوت إطلاق النيران. ودائما ما كانت تنجح هذه الاستراتيجية. تتأمل هذه المرة العجوز في وجه نادية وتخبرها بحنان كيف أنها تشبه ماجدة ابنة عمها المرحومة. تسترسل نادية في الحكاية دون وعي: وكيف كانت ماجدة؟ تواصل الجدة: كانت صافية كالصبح، لها فم كالخاتم وعينان كاللالئ، وحاجبين مثل الأقواس، ضحكتها تغسل القلب، لم تكن طويلة ولا قصيرة، مثلك تماماً، ولها ثديين بحجم الرمان لا تخفيهم كما تفعلن أنتن بحمّالاتكن، تتراقص في مشيتها مثل الدجاجة البرية. ابتسمت العجوز كأنما تحلم بها، بينما إندهشت نادية من تشبيهات الجدة: كيف يكون الفم كالخاتم؟ شفتان صغيرتان ومضموتان كالخاتم. وكيف كالصبح؟ صافية بهية، ليس في وجهها شامة ولا كلف ولا حب الشباب. حسنا كيف تبدو الدجاجة البرية؟ دجاجة متبخترة تسكن الجبال ويصطادها الرجال، الله يرحمها. تستدرك نادية: كيف ماتت يا جدة؟ قتلوها. تتغضن ملامح الجدة أكثر، ويتداعى الألم من وجهها وعينيها ومن كل تفاصيلها، لا ترتعب نادية، لكن فوهة صغيرة من الخوف فتحت في أعماقها. من هم يا جدة؟ لا تجيب العجوز، كانت غائبة للحظة، ولم تكن متأكدة إن كان من الصواب أم من الخطأ أن تخبر الفتاة. إخوتها وأمها، قالت باقتضاب. كانت نادية تمعن النظر في وجهها العجوز، واختفى الخوف، كانت تعرف أن ابنة عمها ماتت، لم يخبرها أحد أنها قتلت، لذا فإن العجوز تهذي بلا شك.

عادت نادية إلى هاتفها، كانت مدمنة فيسبوك من الطراز الرفيع، ولا يتعلق الأمر بإن تكون شخصاً ذا وجاهة على الفيسبوك، لا يتعلق بما تنشره أو بعدد متابعيك، كان الإدمان على فيسبوك في تلك الفترة هو الحياة اليومية لأشخاص مثل نادية، حيث دُمرت الحياة الطبيعية ولم يبق لها وجود خلال الحرب. نادية وآخرون اختاروا أن يعيشوا في الفيسبوك. كانت هناك عشرة ساعات على الأقل، من مجمل الأربعة وعشرون ساعة، يحيط بها أصدقاؤها الذين لم تلتق معظمهم ولن تلتقي، ولم تكن نادية تكتب شيئا ذو قيمة، كانت نشطة جداً، لا تترك منشوراً لأصدقاءها إلا وتواجدت فيه، وخاضت كل حروب الفيسبوك ودافعت بعنف عن وجهة نظرها في الحرب والسياسة، لذا كان اسمها المستعار حاضراً دائما، وكانت اقتباساتها الصباحية تتلقف الإعجابات بالعشرات، ولم تكن الغاية طبعاً من الفيسبوك فقط أن تحيط نفسها بالأصدقاء أو أن تطلع على مجريات الأحداث في العالم. كان هناك غرض خالص تتشاركه مع الآلاف من الشبان والشابات في مجتمعها والمجتمعات المشابهة: يبحثون عن الحب. ولم يكن من المخيف أو الغريب أن يكون هذا الحب افتراضيا وله مخاطره، كانت الغاية هي الشعور ذاته والقصة فحسب، وما يليه أو ما سيؤول إليه متروك للأقدار تقرره أو تعبث به.

ولأن حديث جدتها عن ابنة عمها الراحلة لم يرسب تماماً في قعر ذاكرتها، لذا وبينما تؤدي دورها المسائي في تنظيف المطبخ سألت أمها بدون جدية: هل فعلا ماجدة قتلت على يد إخوتها وأمها؟

شهقت الأم مفزوعة، وعنفت نادية، لكن الأخيرة دافعت عن نفسها بأن شرحت أن جدتها هي التي أكدت على هذا الموضوع، جلست الأم على الأرض، فكرت قليلا، ثم كمن يعترف سردت قصة قصيرة جداً ستغير حياة نادية: «ماجدة ابنة عمك لم تمت موتاً طبيعياً، بل انتحرت، كانت على علاقة بأحد شبان القرية، و.. هذا يكفي. لم تتزوج وانتحرت».

علي

يعكس وعي عليّ رغبته الملحة في الحياة والحب. وبالنسبة لفتى ريفي، كانت المدينة بحراً يجرب السباحة فيه: ملامحه الكابية، هزاله، ملابسه النظيفة غير الأنيقة، سعة إطلاعه، واحترامه لكل القوانين. تخلى عليّ تقريباً عن جلده أثناء دراسته الجامعية، انتزع منه ما أستطاع: لهجته القروية الفجة، لحيته المتناثرة، نمط ملابسه البسيط. تبقت ملامحه الكابية وهزاله، وأيضا أسنانه المصفرة. ما زال يحاول. في سنته الثانية أصبح أضحوكة زملاءه عندما قرر أن يبوح لهم بإعجابه بإحدى أغنى الفتيات في الكلية. في السنة الثالثة أصبح محشوراً في غرف «الشات». بعد الجامعة عمل «طابعاً» في إحدى الصحف المحلية وأصبح الإنترنت في متناول يده في الليالي التي يعمل فيها، تعرف على الفيسبوك، ليصبح شاهداً سلبياً على الأحداث، قبل أن يتحول مساره فيصبح مشاركاً فيها.

في قريته، ظل عليّ كما كان، أحد أولادها الكثر، لكنه أحد القلائل الذي يقطنون العاصمة والذين تخرجوا من جامعاتها. وهو ما زال مثالاً ناجحاً للمراهق الذي يعتني بنفسه مادياً. في الصف السادس اشترى «معزة» صغيرة، وبعدها أصبح لعليّ حياته المالية المستقلة، وبدون تلك المعزة البيضاء لم يكن عليّ ليكمل الجامعة. صغارها الذين تكاثروا، تعتني بهم الأم والأخوات حتى موسم الأعياد. يباعون فيجلبون كسوة عليّ ومصاريفه، أو يشترون بأثمانهم صغاراً آخرين أرخص ثمناً يكبرون ويلقون المصير ذاته، لكنهم يشقون طريق الفتى المجتهد. عليّ أحد رموز قريته، العانس الوحيد في سنه. تزوجت الفتيات اللواتي في سِنّه وما بعد وبعد سِنّه، ولم تبق سوى الفتيات اللواتي شهد ولادتهن حين مراهقاً. وما أن تقترح عليّه أمه أسماؤهن حتى ينتفض مرتاعاً من الفكرة، وتستغرب هي ردة فعله التي لا يمكن أن تصدر عن ذكر طبيعي. لم تكن تعرف أن رفض عليّ ليست فقط أنهن ما زلن أطفالاً، بل أيضا فكرة الحب الملتهب التي مزقت قلب ابنها بالحنين منذ كان صبياً.

تلك الفكرة التي وجدها أخيراً على الفايسبوك. كان عليّ يبحث في كل الأماكن إلا على الفايسبوك.

وعلى عكس نادية، لم يبد عليّ إهتماماً حقيقياً بمواضيع الحب في العالم الإفتراضي. كانت السياسة شغله الشاغل، ولكي يثبت لنفسه وللآخرين فكرة يساريته وإنتمائه لأيديولوجيته، انخرط في سجالات مستمرة بدءاً من صيف الثورة (2011)، دافع عن مبادئه باستماتة، وكان غالبا ما يبدو ساذجاً وحالماً، خاصة لأولئك الذي سبقوه في الحلم. كان عليّ في السياسة مثله في الحب: خاماً وجديداً على التجربة، لذا من الطبيعي أن يكون ساذجاً لدرجة ما، أو لدرجات كثر. وربما لهذا السبب دمرت التجربتان حياته، إذ تبين أنهما كانتا تسيران بخطين متوازيين، ولم تكونا لتلتقيا: الحب والمبادئ . ففي العالم الحقيقي، يمكنك فقط أن تقول شيئاً لكنك ليس دائما تستطيع فعله، على الأقل ليس عليّ.

يمضغ عليّ قاته بجانب النافذة الحديدية للغرفة التي يتشاركها ثلاثة. غرفة مستطيلة وممر ضيق يؤدي إلى حمام ومطبخ متجاورين، في الممر المغطى بسجادٍ كان يوما ما أزرق اللون، يرمي الشبان الثلاثة أحذيتهم بأحجامها المختلفة. لم تكن كثيرة، لا يملك الواحد منهم أكثر من حذائين رياضيين. قريباً من المطبخ، غُرِس مسمار بجذع دائري أكبر من العادة، وكمسمار جحا، كان هذا مسمار شوقي، الشاب الأصغر في الشقة، يعلق عليه ثيابه نصف المتسخة، وحقيبته، وشال يوم الجمعة، وجاكيت الشتاء، الجلدي الممزق عند المرفقين. أما عليّ والآخر فقد احتفظا بكرتونتين كانتا يوماً لقناني الماء، وفي الكرتونتين تتجمع الثياب المتسخة، وخاصة الجوارب المتعفنة. كانت رائحة الكرتونتين لا تطاق في أيام الخميس. في يوم الجمعة قبل الصلاة، يحمل الشبان عفن ملابسهم للمغسلة القريبة، ثم في نهار السبت يمرون لاستردادها. لم يهتم عليّ يوماً بأي من تلك التفاصيل، كانت تفاصيل شوقي لوحده، حاول جاهداً أن يحافظ على الحمام نظيفاً، أن يلزمهم بالقوانين التي إخترعها، وجداول التنظيف المعلقة دون أن تُقرأ على باب المطبخ وفي الحمام نفسه، بحيث فكر أنه لن يسمح لهما بالتبرز دون قراءة التعليمات. الشيء الوحيد الذي كان يلفت انتباه عليّ هو سجاد الغرفة والممر، تلك الألوان الميتة كانت دوماً تذكره بجثة ما، ولأن عليّ يسكن تلك الشقة منذ أربع سنوات، ارتبطت ذكرى كل موت بذلك السجاد، وبقي في الذاكرة جثة حقيقية.

المدينة مطفأة في الأسفل. لليال طويلة أضاءتها القذائف والصواريخ، مدينة لا صوت يعلو فيها على صوت الرصاص والمولدات الكهربائية. في أيام القصف الأولى، كانت الشوارع تفرغ من متجوليها بعد العاشرة. تكتظ السماء حين تفرغ الشوارع. تحوم الطائرات بصوتها المرعب، ويعد الناس اللحظات لوصول ملاك الموت. كل من يتحرك بعد الحادية عشرة يبدو كلص ينسل بين الجدران. رجال محنيو الرؤوس، يسيرون بسرعة وخفة، ما زالت أفواههم ملأى بالقات وعيونهم محمرة، في إحدى الليالي وبينما عليّ عائد من منزل صاحبه، غذ الخطى ليصل الى هضبته المطلة على المدينة وحرائقها. وبينما كان ينسل مثل كل الرجال تحت الشبابيك المطفأة لبيوت الفقراء الذين لا يملكون مولدات كهربائية، حلقت طائرة على إرتفاع غير بعيد، تبعتها أخريات. لم يقرر جسد عليّ إن كان بارداً أم ساخناً، ولم يعرف إن كان مرعوباً أم فاقد الإحساس. كل من كان هناك عرف

أن الطائرات لم تكن بذاك القرب، لكن أصواتها المرعبة تنبئ عن حمولة سيفرج عنها. تقافز رجال من مختلف الاتجاهات، محاولين إيجاد مخبئ. شاهد رجلاً يلتصق بأحد الأبواب المغلقة، وآخر يحتمي بشجرة، شاهد رجلاً يمسك كيساً كبيراً ويحاول إبعاده عن ساقيه بينما كان يجري. رجال هنا وهناك صنعوا قرارات النجاة بلحظة، بينما تسمّر عليّ لا يلوي على شيء، لم يكن هناك من مخبأ، ولم يستطع التفكير أبعد من أن يجد باباً مفتوحاً فيختبئ في درجاته. وبالطبع لن يجده في هذا الليل الزاخر بالرعب. ارتعدت الأرض، قذفت بعليّ قوة جبارة، ارتد عن الجدار المقابل وانكفأ على وجهه، أحس أن وجهه سُحق تماماً، وشعر بعظام ظهره تتفكك، ارتفعت صلوات من خلف النوافذ، وبكى أطفال شبه نائمون، وبدأت ولولة نساء ورجال يذكرون اسم الله كثيراً، وما زالت الطائرات تحوم. تمنى عليّ أن يكون في حلم وأن يصحو ليجد الطائرات تقصف الجبل، لكن رطوبة الدم التي أحس بها على وجهه وفي فمه أيقظته من حلم «الحلم».

حين أفاق، تفقد هاتفه، ودونما تفكير، كان عليّ يحتفي بنجاته ويعترف، كمن يقول كلماته الأخيرة، كتب رسالة واتساب:

« سلمى، يا حبيبتي، أنا أحبك جداً، أحبك لأني حي ولأني كدت أن أموت، أحبك في كل تفاصيل هذه المدينة المحروقة، أرجوكِ، أريد أن أراك، أريد أن أخلق وجهك في ذاكرتي، كدت أموت يا سلمى، كادت الشظايا أن تمزقني، لكني نجوت لأجلك، لأجل أن أراك».

في أقصى المدينة، في شقة من غرفتين، كانت سلمى تحاول أن تنام، بعد سماع صوت الانفجارات. بعد نصف ساعة من إرسال عليّ لرسالته، استسلمت سلمى أخيراً للفضول وقررت أن تشغل شبكة الإنترنت على هاتفها، والتي ستكلفها الكثير. حين تسملت رسالة عليّ، قفزت جالسة، لم ينتبه من يشاركونها الغرفة، أمها ما زالت تبتهل، قرأت الرسالة مرة أخرى. اشتعلت كتلة نارية في أعماقها، أُطْفِئت بالرعب، ثم عادت وأشتعلت. فكرت بكم الحقائق التي لم تفصح عنها، دافعت عن نفسها حين لمحت كلمة « أكاذيب». هي فقط لم تقل الحقيقة، لأن أحداً لم يسألها، لكن كلمة الأكاذيب عادت للأمام، كم من الأكاذيب يجب أن تنسجها الآن؟

سلمى

من قصص الحب. لو كانت سلمى تتمتع ببعد النظر، لكانت بالطبع اختارت قصة حب والديها. لكن الحنق الذي التحفت به حياتها منذ البداية أعماها عن هذه الرؤية عمراً. كانت مشغولة بالوقوف على منصة القاضي، تحاكم الواقع الاجتماعي الذي تدفع هي ضريبته الباهظة جداً، تحاكمه بعنف وقسوة وبدون إعطائه فرصة الدفاع. أما الآن وقد تكرر المشهد الذي عاشته أمها معها هي بالذات، فقد استمرت في المحاكمة لكنها تريثت في تفاصيل الحكاية.

تنظر في وجه أمها لامع السمرة، في جسدها الممتلئ الذي يرتجُّ مع كل حركاتها، تتأمل في عزلتها الاختيارية، في حس الفكاهة الذي تتقشف فيه، في شعورها بالامتنان للحياة، في أسرارها غير المعلنة حتى لابنتها الكبرى، في عبوديتها المطلقة للأب، الأب الذي بلون قمحي صافٍ، شعر خفيف متناثر، ثقة بالنفس نابعة من صلابة التمسك بالقرارات، صمت عن سبق إصرار وترصد، رجل يعمل في مكتبة الدولة التي تغيرت أسماؤها مراراً خلال العشرين عاماً الماضية، رجل هجر ما كان يعرفه وارتحل إلى عالم صنعه بيديه واختار هو كل تفاصيله دون معارضة من أحد. أي حب يمكن أن ينشأ بين كائنين كهذين؟ بين رجل يعيش بين الكتب وامرأة لا تقرأ، بين رجل من عائلة مترفة طبقياً، وفتاة من «المهمشين» (يطلق عليهم في اليمن «الأخدام»، وهم شديدو سمرة البشرة وفئة في قاع المجتمع)، بين رجل يعرف ما سيرتدي الخميس القادم، وامرأة بالكاد تنتبه للتفاصيل. لم تفكر هي بهم من منطلق الحب، لكنها أرادت فتح ذاكرة أبيها لتعرف هذه التفاصيل، الأب الذي كان يقفل ذاكرته حتى عن نفسه هو.

الرجل الذي يصنع عوالمه، كان يصنع عالمها رغماً عن مقاومتها.

لن تكون أمها، فكرت كذلك منذ البداية. هي ليست أمها، رغم أن لها رائحتها وسمارها اللامع، عيناها السوداوان اللامعتان أيضاً، بصيرتها المذهلة. ولم تسعَ لتكون أبيها، هي فقط

استساغت صمته الغامض، وقرأت كتبه المركونة في صناديقه الكرتونية، وفي مراحل صباها التي ناداها فيها الجميع ب «خادمة»، عادت لعزلة أمها، وللكتب التي احتفظ بها أبوها، ويبدو أنه كان قد اختلسها من محل عمله. كانت تقرأ في الشمس، تقرأ ما تفهمه وما لا تفهمه، هي فقط تقرأ الكلمات حين لا يكون لديها حصة في مشاهدة التلفاز. بعدها خبأت كل دفاتر المدرسة المستعملة، نسخت على الورق الأبيض المتبقي ما حفظته من الكتب، ثم صاغت كلماتها هي. وكانت دهشتها العظمى حين كتبت فقرة واحدة من صفحتين، كان فقرة واحدة بعشرات الجمل، حين أحضر أبوها الكمبيوتر «البيج» الضخم إلى المنزل، وقال لها بشكل عرضي: يمكنك الآن الكتابة هنا. كان يعرف أنها تكتب، وهي التي اعتقدت أن أحداً لا يعرف. بصفتها الأكبر بين الأولاد، أحكمت سيطرتها على الكمبيوتر، كتبت كثيراً وخبأت كل كتاباتها في مجلدات مخفية لا يستطيع أبوها الوصول إليها.

لم تعرف عن الحياة الكثير، وفي عزلة أمها الاختيارية وصمْت أباها البارد، نشأت لتحب ما تحب وحدها، مراهقة باختياراتها الغريبة، تخشى العالم وتكره من حولها، تكره طبقتها الاجتماعية ولون بشرتها، تكره الأحياء التي ينتقلون للحياة فيها، تكره أعيادهم التي لم يزوروا فيها أحداً، والتي كانت أيضاً لتكرهها لو كانوا يزورون فيها أحداً. تكره شعورها بالتعالي على عائلة أمها وهو ذاته الشعور التي تكرهه من عائلة أبيها، وكثيراً ما تكره حقيقة أنها تكره فكرة زواج أمها وأبيها الذي تسبب في وجودها وسط هذه المعضلة الطبقية.

أنشأت حسابها المستعار على منتديات الكتابة الرائجة. كتبت بدون بهجة، كتبت غضبها كله وصبته على رؤوس الأشهاد، عنف غير مسبوق بكتابات أنثى باسم سلمى، ثم على الفيسبوك، سلمى فقط. لكنها كانت أكثر لطفاً هناك، خشيت أن يعرفها أحد، خشيت أن تكون هدفاً، خشيت كل ذلك الوهم الذي كان في منتديات الكتابة السابقة، لكنها بقيت بروحها الغاضبة المنكسرة.

لو كانت فقط في مكان آخر..

هذه الأمنية التي تختزل كل شيء. لو كان لها أن تحتفي بنفسها، أن تتخلص من غضبها، أن تتصالح مع العالم، ألا ترى فيه كل هذه البشاعة، لو كان لها أن ترى نفسها جميلة، لو لم تكن أمها مهمّشة، أو لو لم يكن لدى أبيها فرصة التعلم وتعليّمها... لا يمكن أن تجتمع هذه المتناقضات.

«قالوا أني سحرتُ أباكِ كي يتزوجني، جدتك أيضاً أحضرت لي ورقة السحر التي قالت أنها وجدتها مخاطة في حقيبة أبيك الجلدية. أنا لم أسحره، أمي كانت تحب الذهاب للساحرة، أنا لم أذهب قط، هو فقط كان يراقبني كل يوم أعبر فيه عائدة من العمل».

تشرح أمها باستمرار هذه النقطة في كل حديث عن العائلة، لا تستسلم. تقترح سلمى أن الحب ممكن، لكنها تريد أن تعرف المعادلة الشاملة. حين ظهر عليّ فجأة أمامها على الفيسبوك، بصورة وجهه النحيل، نظرته الضائعة الحزينة، وكمية التعازي غير المنطقية التي ينعى فيها قريباً أو صديقاً. تصاعدت دماؤها الساخنة كمن وجد دليلاً على جريمة، بدون خطة بدون هدف، أو بدون حتى التفكير في المعادلة الشاملة

التي تحاول إيجادها. قررت أنها ستضعه في مرمى نيرانها، كما كانت تفعل في منتديات الكتابة، يائسة من أن أحداً سيحبها حين يعرف حقيقتها. كانت تنتقم من المجتمع بالطريقة الوحيدة التي تجيدها: كلماتها.

كتبت لعليّ، جرته في شبكة من محادثات سطحية بلا معنى، حتى تورط في حديث شبه يومي معها، مجازفاً بشراء باقات الإنترنت التي لا يستطيع تحمل كلفتها بتلك الكثافة، والتي كانت جديدة كل الجدة على ميزانيته. أما هي فقد حافظت على هاتفها المحمول مثلما تحافظ على دفتر كتاباتها الخفي، كانت تخشى أن يجد أحدهم ما فيه، أو أن ينكسر. لقد تحصلت على قيمة هذا الهاتف أيضاً ب»كلماتها»، لكنها غير متأكدة إن كانت تستطيع فعل هذا مجدداً.

لم يكن عليّ أحد فتيان المنتديات.

تلك الطبيعة الخام التي اكتشفتها بعد أن كانت قد ورطته، تكشفت لها عن فتى ريفي بسيط، ليس لديه أي تجربة في قصص الحب لا الواقعية ولا الافتراضية. خلال ستة أشهر من التواصل، لم يطلب منها ولو لمرة واحدة أن تريه صورتها، لم يتحدث عن أيّ مواضيع جنسية، لم يعبر لها إلا عن انبهاره بالطريقة التي تكتب فيها. بدأت تشجعه بطريقتها ليخوض في الوحل المحرم وبالتالي تطرده من جنة كتاباتها، كما اعتادت. لكن عليّ كان أغبى وأبسط من أن يعرف تلك اللعبة، ولم يكن ليقارن أبداً بكل الرجال السفلة والمتحرشين الذين اختبرت انحلالهم خلال مراحل المنتديات وغرف الشات وعلى مواقع التواصل الاجتماعي. كانت قد خرجت بنسب مدروسة على طريقتها، وأعلنت أن المجتمع بكامله مريض جنسياً، وأن أفكاره المنحلة ستقضي عليّه يوماً بلا شك.

استثنت نفسها من كل قاعدة.

أما عليّ، الذي كان عانس قريته، وحامل جنازات أصدقائه وأصدقائهم، كاتب التعازي الأكبر، السبّاح الذي يلتقط جثث الفتيات من خزانات المياه، الباحث عن الحب، المعذب بفكرة المال الذي لا يستطيع إيجاد مصدره، عليّ الذي أصبح يصحو من نومه ليفتش عن رسائلها، وينام بعد أن يكون قد تمنى لها ليلة سعيدة، فقد وجد نفسه قزماً في حضورها، مشحوناً برغبة أن يكون أفضل، سارحاً في تهويمات الظهيرة القاسية، متخيلاً شكلها وتفاصيل يومها، مرتعداً من فكرة خسارة هذا الأُنس الذي حلّ في حياته من حيث لا يحتسب، دائراً في فلك كان قد وصفه بالجاذبية الساحقة للأنثى الغامضة المقتدرة. لم يستطع عليّ فهم هذه السرعة في فيضان مشاعره، اعتقد أنه التسلسل الطبيعي، ولم تشرح له سلمى أن هذه مؤثرات التجربة الأولى.

أخيراً، في تلك الليلة حين فكر علي أنه لن يكتب عزاءً لنفسه، ترك نفسه للموجة الأكبر. قرر أن مصدر المال السريع أمرٌ سيفكر فيه لاحقاً، وأن اللحظة حانت ليترك الشلال يأخذ مجراه. كان الشلال ذاته الذي تحاول سلمى قمعه، خائفة من البؤس الذي سيتسبب فيه لروحها، مُذلّة من كمية الحقائق التي إما أنها لم تقلها، أو أنها كذبت بشأنها.

إكتشافات ما بعد الظهيرة

يبدو وكأن نادية تدور في مدار وداد، لكنها لم تكن كذلك. لم تكونا صديقتين قديمتين، صارتا مؤخراً. اختارت وداد نادية صديقة لها في السنة الثالثة في الجامعة، تعرفت على عائلتها بسرعة، وزارتهم في كل المناسبات بابتسامتها المنافقة وشعرها القصير الذي لم تحبه لا الأم ولا الأخت الكبرى المتدينة. وفي السنة الرابعة تأكدت الصداقة حين بادرت أم وداد باتصال هاتفي لتهنئة أم نادية بخطوبة ابنتها الكبرى، وأيضا لتحكي لها عن جيرانها الذين ماتت ابنتهم الصغيرة بسبب الكوليرا وكيف أن الجيران تعاضدوا جميعاً لينقذوا الأم من موت محتم. تلك كانت الخطوة الأكبر والتأكيد الحاسم أن وداد فتاة موثوق بها. سمحت أم نادية لابنتها بأن تزور بيت وداد، وبأن تبقى طيلة عصريات الدراسة في منزلها، حيث أنها أقنعتها أن لدى وداد المولد الكهربائي الذي يقف في وجه مشكلة انقطاع الكهرباء، ويوفر جو مذاكرة مريح.

عذر كاف لاكتشافات ما بعد الظهيرة.

لم تكشف وداد منظورها للحياة مرة واحدة أمام نادية، أخذتها في رحلة غزت فيها أكثر خيالاتها: الكافيهات المختلطة التي تُقدَم فيها المخدرات كالقهوة مع شرح كيف أنها قد تعوض القات بمنظره المخزي، ويُختبأ فيها أوقات القصف الشديد كونها تحت الأرض. جلسة قات في بيت صديق والعودة منها في الساعة التي تبدأ فيها الطائرات بالتحليق. رحلة إلى الجبل للإطلاع على منظر العشاق الهاربين من المدينة ورحلات الزوجات الخائنات في فترات استراحة الحرب. التعرف على رابطة "نساء للنساء"، مجموعة المطلقات والمثليات والمنفيات من منازل العائلات الكبيرة.

وفي كل مرة كانت نادية لا تملك المال الكافي، كانت وداد تملكه. في البداية لم تحب نادية زيارة بيت وداد بسبب ذلك الجو المشتعل بين الفتاة وأمها وإخوتها الإثنين، والذي لم تعرف فيه إن كان يجب عليها أن تكون منافقة وتبتسم أو تتصرف كما تفعل وداد بوقاحتها الدائمة. لكن

فيما بعد اكتشفت أن ذلك هو الشيء الوحيد الجيد في حياة وداد: دائرة الحرية التي تمنحها عائلة مفككة بأم منشغلة وأب مهاجر وأجواء حرب تبدو فيها الحياة رخيصة وهشة.

تفتحت نادية على الأكاذيب والأسرار، ابتلعتها، لكنها عرفت كيف تصيغها بشكل واع وذكي، لم تسقط أي كلمة سهواً، تعود عند السابعة، ليس بعدها أبداً. تحافظ وداد على المواعيد وتدبر الرحلات واللقاءات بناء على أوقات نادية، وتبادر بالاتصال بأم نادية قبل أن تتخذ الأم الخطوة وتنكشف الكذبة. تخيلت وداد أن نادية ستمثل دور الساذجة الخام في البداية، لكن نادية كانت أكثر استعدادا - بسبب طباعها في "عدم التفضيل" الطاغية عليها - لأن تجرب أي شيء.. ذلك البرود المستفِز لفتاة لا تبالي، لا تحنق، لا تندهش. احتفظت بنظرة الريبة في زوايتي عينيها لتواجه بهما مجتمع وداد الواثق من جبروته، المتصنع التمرد. لم تكن نادية لتظهر لا اللطف ولا العداء، ولم توجه لوداد يوماً كلمة امتنان أو تعبير انذهال، وكأنها خُلقت في كل العوالم مرة واحدة، ونشأت تحت كل الظروف. سحر ذلك وداد منذ البداية، يوما ما تمنت لو كانت هي هذه الشخصية فهي كانت تدهشها كل التفاصيل وتسحرها كل المفاجآت. تحول ذلك البرود فيما بعد إلى مسألة تحد بالنسبة لوداد، رأت نادية تتعالى في برودها وعدم تفضيلها لأي شي، رأت فيه جحوداً مستفزاً. كانت وداد تعي في قرارة نفسها أن لها سلطة على نادية، بيد أن نادية لم تكن لتعترف بذلك، على الأقل صراحة.

تعبر نادية الخط بين الحياتين بحذر، لم تمزجهما، ولم تعجبها إحداهما، تعود إلى المنزل من اكتشافات بعد الظهيرة، تضيف على الحيوات التي شاهدتها أو قابلتها تفاصيل أكثر، تصنع حكايات قبل النوم، تمنح الآخرين حياة غير حياتهم الحقيقية التي لم تتح لها الفرصة لتتعرف عليها كاملة، وتتوق بحنين مَرَضي لحياة غير كل الحيوات التي تعرفها والتي صادفتها. تقضي لياليها منذ كانت مراهقة في تخيل الأحداث الغريبة الاستثنائية التي ستصادفها هي وحدها، كائنات فضائية تصل منزلهم في منتصف الليل وتضع الجميع تحت قوة النوم العميق، ما عداها، تختطفها لترميها في عالم آخر، ولا يهم إن كان ذلك العالم جميلاً أو سعيداً، المهم أنها غادرت غرفة الأخوات. حادث على الطريق السريع يؤدي بالزمن للتوقف وللكائنات بالسكون المؤقت.. أيضا ماعداها، التي ستقابل الشخص الذي لديه هذه القوة لإيقاف الزمن. زلزال هائل يجعل الناس يهيمون في الطرقات لكنها ستنجو برفقة الرجل الذي اختطفها من الشارع تحت هول الانهيارات لتكتشف أنه أيضاً بقوى خارقة. سيناريوهات لا عد ولا حصر لها لرجال ونساء لديهم قوة الانتقال عبر المكان، يختطفونها من سلم العمارة وتجد نفسها في أماكن بعيدة. ومرة أخرى، ليس مهماً أبداً أن تكون أماكن جميلة، المهم أنها الآن بصحبة هذه القوة - الدهشة والتغيير..وهكذا لسنين طويلة، طورت نادية أحلامها بناء على الأفلام التي شاهدتها والقصص السحرية التي قرأتها، لم تكفر قط بتلك القوى، وانتظرت بصبر تلك الصدفة التي ستغير حياتها للأبد. لم تكن تكره حياتها، لكن شعوراً واحداً أمضّ أيامها: لم تكن

تنتمي لهناك، لا لزمانها ذاك ولا للمكان والأشخاص.

في الليل يتصاعد صوت صلوات الأخت الكبرى، خشوع تام وتضرع، تدعو برجاء لأشياء بعيدة عن عقل نادية المنشغل، صلوات عن الغفران والذنب، وإجتهاد في تكرار سيرة الجنة والعذاب. و تظل هناك في الظلام متكومة على سجادتها، تسمع نادية في أحيانٍ ما نحيباً غريباً صادراً عنها. تحولت الفتاة الكبرى لشخصية متدينة بسبب الحرب والكوليرا. كانت إصابتها بالكوليرا قد غيرت حياتها وبالتالي حياة البيت كله. فكرة أن الموت مترصد على الباب شحنتها بذنب مروع فرضته على كل من حولها، لم يكن أحد يستطيع الإعتراض ولا حتى الأب نفسه. فالإعتراض يعني الوسم بأنك لا تحب مظاهر الدين الطبيعية. قللت ساعات مشاهدات التلفاز، وحددت ما الذي يمكن مشاهدته، وسريعاً بدأ الصدام بشأن مواعيد الصلاة، وبشأن استخدام الهاتف. تذهب الكبرى إلى مركز تحفيظ القرآن بالحارة كل مساء، وتعود بمسحة الرضى حتى تحت وطأة القصف الذي يطال أطراف المدينة، تعود بنباتات جديدة جاءت بها سيدات المعهد الفاضلات. لم تتواجه معها نادية قط، لكن في الليل، وخلال كل نحيب غريب، كانت نادية تخترع لأختها ذنبا وخطيئة: تقابل خطيبها في السر، تسرق من مال الأم، تحب شخصاً آخر غير خطيبها، تتعاطى الممنوعات، تكذب في موضوع الذهاب لمعهد تحفيظ القرآن، تكره عائلتها..

لكنها تعود لتبرئها من كل ذنب. فقط تشعر بالشفقة تجاهها، وتجاه ما حدث لها، وتفكر: ماذا لو عرفت الأخت بكل خطايا نادية، بكل أكاذيبها الملتوية، بكل هذا الاستهتار بحياة مرفهة بينما يموت الآلاف من حولها كل يوم؟ مؤكد أن الأخت ستفقد عقلها وقد تقتل نادية نتيجة عاصفة شعور العار. وحيث أن الخطيئة في حياة نادية واردة ولا مفر منها، وربما يرد القتل، تمنّت نادية من جديد لو أنها تعرف ما الذي تخبئه لها الأيام، تمنت فقط لو تعرف الحلقة الأخيرة، أما التفاصيل قلم تكن مهمة. وشاركتها وداد الأمنية.

بعدها، وخلال إحدى رحلات اكتشافات ما بعد الظهيرة، كانت الفتاتين تعبران الشارع باتجاه مدخل ضيق في الأحياء القديمة، أصلحت نادية برقعها بحركة اعتيادية، وألقت نظرة طويلة على بوابة الدكان المقابل. كانت البوابة الحديدية مسدلة للأسفل، وعليها كتابات غير مقروءة، وقد اخترقتها عشرات الرصاصات، لكأن أحدهم وجه رشاشه نحو تلك البوابة وتوقف لديها، وفي لحظة، طفت في عقل نادية الجثث التي ما زالت في ذلك الدكان، رجال منكفئون على وجوههم في المساحات الضيقة للمكان، تختلط دماءهم التي تجمدت بقناني العصير وفتات البسكويت الذي أطارته الرصاصات الممطرة، ما الذنب الذي من الممكن أن يكون قد ارتكبه هؤلاء؟ ويا ترى كم من الرجال كانوا في الجهة المقابلة، حاملين رشاشاتهم بعزيمة؟
الرجال هم الشر. فكرت..

اخترقت الفتاتان الشارع مسرعتين، وفي الحارة الضيقة عبرتا بالأطفال القذرين والفتيات اللاتي أرتدين الحجاب للتماهي مع الجمع لكنهن أبقين على فساتينهن القصيرة، العائلات الفقيرة المحشورة في الشوارع الخلفية للعالم، منسيين كأن لم يكونوا، ترتفع رائحة الكوليرا والجوع من حارات كتلك، تسللت الفتاتين تحت نظرات الفتية والصبايا الفضولية، أوقفت وداد صبياً هزيلاً وسألته بحذر إن كان يعرف منزل الشيخة لطيفة. قادهما الفتى في الحارات الضيقة، حتى وصلتا لمبنى من طابقين، ثم انحدرتا إلى الأسفل عبر درجات مظلمة. تصاعدت رائحة بخور "الجاوي"، وأصوات نساء يتحدثن. فتحت الباب امرأة في الستين ترتدي جلابية خضراء اللون ويلف رأسها منديل أحمر، افترت عن ابتسامة بأسنان مصفرة بسبب السجائر والشيشة:

- جئنا للشيخة لطيفة، قالت نادية بصوت صاف.

- آه ! ردت المرأة – تفضلا يا بناتي.

لم تكن شيخة، كانت امرأة أربعينية، ثقيلة النظرات، أحست نادية كما لو أنها تحت السيطرة الكاملة للمعان عينيها، لم تتحدث كثيراً، أجلستهما على حصيرة بينما أعتلت هي فرشاً مزركشاً. سألت وداد بضعة أسئلة عن جامعتها وحياتها، ولم تعر نادية أي إهتمام. أخبرتها وداد أنهن جئن ليعرفن مستقبلهن، حيث سئمن التفكير. قالت لها أنها تعرف لماذا جئن، عدلت السيدة من هيئتها ثم وجهت عينيها لوداد:

- ستتزوجين شخصا غنياً، لن تعملين، سيخونك وتخونيه، ستكونين سعيدة في المجمل ولديك أولاد، وحواليك بحر وخضرة لا أراهما في هذه المدينة، ووجوه لا أراها في هذه المدينة.

- أتمنى أنها في جزر الكناري. قهقهت وداد. لكن السيدة لم تبتسم بل التفتت بنظرة باردة لنادية قائلة:

- أنت تمشين في طريق ابنة عمك ماجدة، لن يكون لك مصيرها، لأنك تحاولين الحياد، حولك الكثير من الناس والكثير من الحكايات، أنت محاطة دوماً بالناس ولا أستطيع رؤياك واضحة، ليسوا جميعا أخياراً.

تصمت الشيخة كأنها تخفي تفاصيلاً أخرى، بينما تسأل وداد بفضول:
- من هي ماجدة؟

القصص الأخرى

علي لم يجد نفسه فجأة في معترك الحرب والسياسة، لكنه أيضاً لم يسعَ إليهما. وهو، من دون أن تكون لديه مواهب كتابية حقيقية، كان يمد إحدى الصحف الإلكترونية المحلية بالقصص والتحقيقات الواقعية عن الحرب، والوضع الإنساني بنواحيه السياسية والاجتماعية والأمنية. في تلك الفترة، كانت حتى القصص الإنسانية تثير ريبة طرفي القتال، ولا يهم أي الطرفين هو المتهم في القصة. جمع علي القصص من كل مكان، ولم يكن ذلك شيئاً صعباً. بالعكس، كان أسهل ما يمكن فعله. كتب علي، بلغته الفجة عن شباب القرى الذين جنّوا بسبب الحرب والبطالة، كتب عن الذين أُدخلوا أو أُخرجوا من معتقلات الميليشيات المتنوعة، ثم لم يعودوا هم أنفسهم بسبب التعذيب والجوع. كتب عن معتقلي وقتلى منشورات الفيسبوك، عن الأمهات اللواتي عرضن أحد أطفالهن للبيع لتؤمنّ طعاماً لمن احتفظن بهم. لكن أحداً لم يشترِ طفلاً مشرداً. كتب عن فتيات منتصف الليل اللواتي يظهرن فجأة في جولات مرور الشوارع الكبرى، يصطدن السيارات الفارهة أو تصطادهن السيارات. كتب عن المطاعم الصغيرة التي استبدلت لحم الضأن والدجاج بلحوم الكلاب والقطط الشاردة، وأضافت عليها الكثير من الفلفل لتبدو مثل الشاورما. زار علي البقالات الصغيرة، وشهد كيف تغير تواريخ الانتهاء لتبدو صالحة للأبد. جمع حكاياته من أبواب الصيدليات حيث دوماً وأبداً يوجد المرض ولا يوجد الدواء. عدّ الطلعات الجوية، وعدد مرات القصف كل ليلة، واحتفظ في ملفاته بأسماء القتلى وقصصهم ما استطاع إليها سبيلاً. وصور حكايات الممزقين في الشوارع جراء القصف، المتسولين قتلى الصدفة والأخطاء، المراهقين الفارين، والمراهقين اللاجئين الذين شوهت الحرب إنسانيتهم، وحولت أعينهم إلى عدستين متلصصتين كذئاب شاردة. الأمهات الجائعات اللواتي تتدلى براقعهن حتى منتصف وجوههن، وتبرز بعنف عظمة الأنف الناحل، جاعلة مرأى المحجرين الغائرين أكثر إيلاماً وتعذيباً للضمير. احتفظ علي بالصور في مخيلته كونه لا يمتلك كاميرا.

أمهات نائمات على الأرصفة يفترشن مع أطفالهن بقايا الورق المقوى. رجال بكروش بارزة

تهتز سياراتهم اللامعة كلما ارتموا على كراسي القيادة. رجل مُزق نصفه الأسفل بقذيفة طائشة، ينادي الناس الحائرين طالباً مساعدتهم، وقف ثلاثة شبان بهواتفهم الذكية يلتقطون فيديوهات لتوسلاته. سيدة برموش طويلة بشكل غير طبيعي، تصفع صبياً متسولاً بتهمة التحرش، وترفع أمام وجهه إصبعها الناعم المطلي بالحناء. سيدة بجلباب ضخم تسرق البطاطا وخضروات أخرى، وترميها تحت جلبابها.. توقع علي أنها تخبئ حقيبة معلقة هناك. رجل يبكي بجانب المسجد، وهو يعلق ملصقاً لشاب وُصف بالشهيد البطل، يقبّل الملصق قبل أن يتركه هناك على جدار المسجد وحيداً إلى الأبد. سيارة تحمل كوكبة مسلحين تدلف إلى المطعم الفخم. ينتظر علي في الجهة الأخرى أمام الكافتيريا التي تبيع ساندويشات البيض والجبنة، تخرج الكوكبة بسلاحها وضحكاتها وبكمية من الطعام تكفي قرية، يحافظ علي على حقده الطبقي في أدنى مستوياته حين تطلق رصاصة من أحد الكلاشينكوفات احتفاءً بوجبة الغداء. صورة الضوء الباهر الخلاب الذي تصاعد من الجبل في الثواني التي سبقت صوت الانفجار الهائل. صورة اليد التي نبتت من جبل القمامة المتراكم، جثة مزروعة هناك لمجهول بقيت يده تشاهد المارة المسرعين، ولم ينتبه لوجودها سوى علي الذي تأمل فيها، أعطاها قصة كاملة ثم مضى، قليل الحيلة غير شاعر بالتقصير.

قيل له أنه يسعى للخطر.. لم يكن يسعى إليه. في البداية اجتهد في ما كان يعمله لأجل المال، نفذت فرصه ومحاولاته في أن يجد عملاً ثابتاً. كان يحكي حكاياته في مجالس القات، حكايات لا يملها السامعون. كان لعلي حكاياته من تاريخ حياته غير الطويل، من الأماكن القليلة التي عاش فيها، من الشخصيات غير الساحرة التي قابلها، كل الذين عرفهم ويعرفهم ولم يعرفهم. أرّخ علي لقصصهم بطريقته البسيطة المروية... لنفترض أن أحدهم يتحدث عن جرائم الشرف مثلاً، ليقل أحدهم أن صراخ جارته المراهقة التي كانت تتعرض للضرب والتعذيب على يد والدها قد أُسكت تماماً، سينظر علي إلى قاته المسترخي أمامه، سيرفع أحد أغصانه الخضراء، وسيبدأ حكايته التي سيسمعها كل الحاضرين في المجلس: قبل سنوات، في القرية، شهدت بنفسي إحدى جرائم الشرف، كانت صبية بين السادسة عشر والسابعة عشر من العمر، أعرفها منذ كانت طفلة، وُجدت مرمية في خزان الماء منتفخة وميتة، لم يعرف أحد إن كانت تعرضت للتعذيب. أنا أعرف إخوتها جيداً، صدقوني يمكن للإنسان الطيب أن يصبح وحشاً إنْ زُرعت في رأسه فكرة ما، ليس الدين والطائفة والأيديولوجيا هي ما يمكن أن تحول الإنسان العادي إلى قاتل، بل فكرة الشرف أيضاً. أعرف تلك العائلة مثل عائلتي، فتيان طيبون وأب طيب، لكن قيل أن الفتاة كانت تقابل شاباً من قرية مجاورة، ثم بدأ القيل والقال، وفي صباح باكر، سمعنا زعيق الأم، كان صراخاً يشق القلوب، وجدت ابنتها ميتة في حوض الماء. قيل أنها انتحرت، ثم قيل أن إخوتها اقتادوها عنوة لخزان الماء، أما عائلتها فقد قالت أنها انزلقت وحسب حين كانت تجلب الماء في الغبش الباكر. لم تُعرف الحقيقة حتى الآن، لكن

في النهاية الجريمة واحدة، فطفلة كهذه لم تكن لترمي نفسها في الماء لو لم تكن قد تعرضت للترهيب الأسوأ من الانتحار نفسه. كانت فتاة شجاعة متمردة على القوالب، لكنها تظل فتاة صغيرة في قرية كبيرة. دُفنت الفتاة ودُفنت حكايتها معها. أتذكر أننا حفرنا لها قبراً يطل على القرية، يومها اعتقدت أني أساعدها كي لا تشعر بالوحدة، فتشاهد من قبرها قريتها بالأسفل، لكني بعد ذلك أدركت أني كنت في منتهى الغباء، فلما فتاة مثلها ستريد أن تشاهد القرية التي قتلتها؟

يقود علي حكاياته بنفسه لنقطة النهاية التي لا يتبقى بعدها للسامع أن يسأل شيئاً. يتنهد وحسب، ويستذكر حكاياته هو الآخر، والتي تبدو مقتضبة بدون روح في حضرة الحكواتي علي. اقترح عليه صديقه أن يدون قصصه الحقيقية عن الناس والحياة والحرب في كتاب، فأخبره علي أن قدراته الكتابية ليست أفضل حالاً من قدرات الرئيس الخطابية. أخبره آخر أنه يستطيع بيع تلك القصص للصحف والمواقع الإلكترونية المستعدة للدفع مقابل مزيد من القراء، مرة أخرى يذكّرهم علي بقدراته الكتابية. "هل تقرأ ما يكتب اليوم"؟ سأله صديق. زمن الكتابة الجميلة بالفصحى ولّى إلى غير رجعة، اكتب ما يخطر ببالك يا رجل!

عاد علي ليلتها، ظل يكتب بطرق مختلفة. كانت عشرات القصص التي رواها، والتي لم يروها بعد تتراكض في مخيلته، تدخل في بعضها، يتشابك أبطالها، ليلة بعد ليلة. كتب علي الكثير، قصص مجتزأة بلغة ركيكة رسمية بدون روح، قرأها مشتاق، زميله في السكن وبصق عليها وعليه، أخبره أن الحكايات تحتاج روحاً مثل بني البشر، وأنه يجب أن يستعيض عن التعابير التي يكسو بها وجهه وصوته عندما يحدّث الناس في مقيل القات بتعابير مكتوبة. حاول علي أكثر، وحين تعرف على سلمى، سحرته بشكل كامل طريقة كتابتها. كان يسرق تعابيرها، مفرداتها، روح الجُمَل التي تكتبها، ثم يعيد صياغتها من جديد، يبعثرها في حكاياته بحيث لن تجدها سلمى ولن تتعرف عليها إن هي قرأت قصصه المباعة للموقع الإلكتروني. وحيث أنه لم يتباهى يوماً بما يكتب، ولم ينشرها على حساباته في وسائل التواصل الاجتماعي، فإن أحداً لن يكتشف أنه هو من يكتب تلك القصص القوية بلغة ضعيفة. اختبأ علي وراء اسمه العادي والذي يمكن أن يكون اسماً لآلاف الناس في المدينة: علي عبد الصمد.

تعرّف قرّاء الموقع الالكتروني على مجانين علي، مشعوذيه، قتلاه وجرحاه، القنابل وأماكن التفجيرات، حروب الجانبين في المدن، تعرفوا على شهادات أصدقائه من المدن الأخرى. قابلوا شخصياته الواقعية في الشوارع والحارات. بغضوا مثله تماماً صانعي ثروات الحرب. عرفوا مواقع الفيلات المبنية حديثاً بأموال السوق السوداء. وصف علي العائلة التي اشترت مؤخراً ثلاثة كلاب، وبنت حمام سباحة في حوشها، والعائلة التي أقامت زفاف ابنها على مدار

أسبوعين من الولائم. نقل علي شهاداته كاملة من الكافيتريات المجاورة لكل حدث، احتسى الشاي بأبطأ ما يمكن، راقب تحركات الناس وتعرف عليهم، كانت له أهدافه التي يحددها قبلاً، وينقلها للقرّاء بكل مصداقية وبساطة وركاكة في اللغة. لم يعر الناس أي اهتمام باسم الكاتب أعلاه، كان نوعاً من المواقع الإلكترونية المحلية التي لا يهم من هم كتّابها. وبالنسبة لعلي كان المهم فقط هو المبلغ الذي يتقاضاه عن كل قصة تُنشر. لذا تبادل الطرفان اللاهتمام، وأختبأ علي وراء الظلال. لكن ومع رغبته الكاملة بألا يعرف غير أصدقائه المقربين أنه كاتب تلك القصص، بقيت مشتعلة لديه رغبة أن يشارك سلمى ما يكتب، سر يؤرقه كأنه يخبئ علاقة أخرى أو يخونها في العلن. أخيراً حين طلب منها مقابلته، وضع تخيله كاملاً: سيتحدثان عن العمل والحياة، وسيخبرها بأنه يكتب هذه القصص، وبأنه كان خجلاً أن يريها ما يكتب، حيث أنها ملكة الكتابة بلا منازع. ستفرح هي بمجاملته، وستنسى أنه خبأ عنها مصدر رزقه بعد أشهر من التعارف. كان سره الوحيد الذي يعذبه، وبينما يضع علي تخيلاته، وكيف سيصارحها بسره البسيط، كانت سلمى تحيك قصصها وأسرارها في الظلام، وتقرر أنها ستلتقي به ثم لا تقرر، تتمسك بالأمل الرومانسي، ثم يذكّرها مرأى قدميها السوداوين بحقيقة مخاوفها وواقعها: اثنان يعدوان في الطريق ذاته ولا يلتقيان.

ليالي الحب والحرب

تُحدِّث سلمى علي بفيض من التفاصيل، للانتقال بالعلاقة من مرحلة "أ" حيث الأحاديث تدور حول العام وسطحيات الحياة، إلى المستوى "ب" حيث التعمق في شجرة العائلة والجيران وحكايات المدرسة التي نظل نرددها في كل محفل. وفي المرحلة " ب تكون العلاقة في موجاتها القصيرة المتدفقة شيئاً لا يصدق من لذة الحكايات والاكتشافات، عطش لقول المزيد وعطش لسماع المزيد. وخلال هذا يعيد الشريكان شريط الحياة إلى الوراء، يختلقان القصص إن اضطروا لذلك، يجمّلان ما حدث في الواقع أو يزيدانه بشاعة.. كل هذا لأجل متعة السرد، ولجعل الحكاية أقصوصة شهرازدية بحق وحقيق. وهكذا كان علي وسلمى في محادثات تمتد الليل بطوله، وكان من المرجح أن علي سيستخدم حكايات كتلك في منشوراته ركيكة اللغة.

لم تكن سلمى قد وافقت بعد على مقابلة علي.

تذرف أم سلمى دمعها في المطبخ. ابن أختها مفقود. يعرف الجميع الحكاية، كيف يختفي أمثالهم دون أن يُذكَروا في السجلات، مواطنون بدون هويات، بدون أرقام في سجلات الدولة، ليسوا فقط المنبوذين اجتماعياً، كانوا عملياً مثل الكلاب الضالة في الشوارع، تراعي وضعهم جمعيات حقوق البيئة والحيوان، متشدقون ومتشدقات ينهبون بأسمائهم ملايين الريالات في مشاريع لم يشاهدوا نتائجها يوماً، ترتفع اللافتة عريضةً في مناطق خيامهم: المشروع الإسكاني للمهمشين. لم يكن هنا أبداً أي مشروع إسكاني. تعرضت خيامهم الهشة وبيوتهم الصغيرة الحجرية للجرف بفعل الأمطار. ومثل الحيوانات الضالة أيضاً مات الكثير في صقيع الشمال القاسي. وحيث أن أساليب موتهم تتنوع، كانت أم سلمى تستغرب ذلك الانفجار العظيم من الدراما والتباكي بعد الحرب. بالنسبة لها ولعائلتها ولكل فئتها كان هذا ما عرفوه منذ البداية، ثم كيف للحرب أن تجعل مما هو أسوأ أشد سوءاً؟

لم تستسغ المرأة بحس فكاهتها المقتصِد كل ذلك التهويل. أخبرت ابنتها التي كانت أيضاً

بنظرها تهوِّل مجريات الحرب، أنها كبرت وهي تتعرف على طرق الموت الممكنة، المعروفة وغير المعروفة، الحزينة والمضحكة، الغريبة والاعتيادية، في كل الشوارع حيث كانت تجوب مع أمها حاملة أكياس القمامة العملاقة. شهدت حالة وفاة لفرد من مجتمعهم لم يعره المارة حتى الالتفات، الأولاد الذين ماتوا ملتهِمين بالخطأ سماً وضع للكلاب الضالة، النساء اللواتي جرفتهن السيول ولم يعثر على جثثهن بعد، الفتيات اللواتي تعرضن للاغتصاب والتشويه، الفتية الذين أعدموا بطريقة اللهو من قبل شباب كان لديهم السلاح والكحول، رجل انزلق بقشرة موز، وسيدة مزقت شريانها على طريقة الانتحار بينما كانت تنظف ما حول صندوق القمامة، الرجال الذين اختفوا دون أن يبلّغ عن اختفائهم كونهم لا يملكون ما يثبت وجودهم من الأساس. لن نذكر الجوع، لن نذكر البرد، لن نذكر المرض، لن نذكر وفيات عسر الولادة والنزيف وانفجار الحمل والإجهاض. ترتاع سلمى بينما أمها تسرد كل ذلك بطريقتها ذاتها، بدون غضب أو سخط، وكأن ما حدث كان لا بد أن يحدث، والحرب هي شيء عادي أيضاً، ما الفرق؟ وابن أختها المختفي الآن لا تختلف قصته عن كل القصص السابقة، لكنه بالتأكيد لن يرقى لقصة ابن عم الزوج العالق في مشكلة الانتماء بين الشمال والجنوب، فذلك رجل آخر، كانت لديه بطاقة هوية، ولو أنه بسببها تعرض لما يتعرض له الآن، لكنه على الأقل يحملها.

يواصل والدها مكالماته للاطمئنان على الرجل الذي طُرد من محل الخضار خاصته، وضُرب بأعقاب بنادق الجنود الفتية ورجال آخرين بالزي المدني. تناثرت الخضروات في المكان، وحاول المراهق الابن أن يعترض سيل الضربات الموجهة لأبيه، لكن ضربة واحدة بعقب البندقية كانت كافية لزلزلة فكه الصغير الطري، أسنان صغيرة اختلطت بمعجون الطماطم الذي صنعته أقدام المقتحمين، حاول الأب الفرار، لكنه فقد في محاولته تلك ضلعين وعيناً و"معوزه" الذي رماه عنه شاب عشريني بعينين حمراوين. تتعرض البلاد للتطهير، في كل مكان مطهرون، على الحدود بين الشمال والجنوب شوهدت النسوة يصرخن محاولات الانضمام للذكور الذين تم فصلهم عنهن، في الجنوب في الداخل، تناثرت الأشلاء في كل مكان، تفجيرات وعمليات قتل واغتيال، إدارة عليا برعاية الدول الأغنى. الدول التي تطأ بقدميها الأمكنة فتحولها إلى قذارة خالصة، تصنع المأساة ثم تناقشها صحفها الصباحية، و"تقول بالضبط ما لم يحدث" كما وصف والد سلمى الأمر. فر الطلبة حملة الهويات غير الجنوبية. رميت الجثث أمام بسطات الخضار والملابس الصينية الرخيصة، ولم يفر من كان محظوظاً واختبأ من طريق التطهير الذي يصل العوالم الدموية الجائعة، بانتظار حلقة قادمة من فرز الهويات.

في الشمال كان المنهج مختلفاً، فُجِّرت البيوت حسب الانتماء، كانت التسجيلات المتداوَلة لتفجير المنازل قد بدأت قبل الحرب بكثير، حينما عبرت العصابات المقاتلة من منابعها باتجاه

العاصمة، فنسفت في طريقها منازل المعارضين، وسلبت أموال غير المنتمين. اجتمع في النظام الشمالي خليط هيئة حكم من القرون الوسطى، ومنهج عصابات الجريمة في أمريكا اللاتينية، أُعتدي على مغنيّ الحفلات الشعبية، الشبان ذوو الشُعور المنطلقة، الفتيات بالعبايات الملونة، فصول الدراسة المختلطة، كافيهات المدينة التي لا تملكها عائلات السلطة - العصابة، السيارات العابرة بعد العاشرة مساءً. صودرت اللقاحات وحبوب منع الحمل. اقتحمت استراحات الشباب التي تظل مضيئة بعد منتصف الليل، وفرضت الضريبة على كل التجار وأصحاب رؤوس المال ممن هم خارج المنظومة الحاكمة. ازدهرت السوق السوداء، وأقفلت محطات بيع البنزين العادية، وخلقت المدن نظام حياة جديد، يعتمد على طوابير لامتناهية للحصول على غاز الطبخ أو وقود السيارات. خلقت مناصب جديدة ووظائف جديدة، واندثر نظام حياة كان يحاول مجاراة العالم.

كان للحرب مسمياتها الحماسية الخارجة من قصص التاريخ، وكان للحب أن يعيد كل تلك المسميات في رسائل الليل السرية المحية فوراً مخافة أن يوقعهم سوء الحظ في نقطة تفتيش، وتصادر هواتفهم كما يتم عادة. وبنقاش يومي عن الوضع، كانت سلمى أكثر سوداوية، شاركت علي قصة ابن عم والدها، لكنها لم تأتِ على ذكر ابن خالتها المختفي. اكتفت بطمأنة أمها بكذبة جوفاء، أخذت الأم شيئاً من مخبوزات أعدتها الليلة الماضية، وتجلببت بخمارها الفضفاض مخفية حتى عينيها، ثم انطلقت إلى "عشة" العائلة. شعور من عار كسا سلمى، وشعور من خوف حملته الأم التي أيضاً، مثلها مثل الملايين، ضاعت في الانتماء. لم يكن لدى عائلتها في المنطقة القذرة خارج المدينة الوقت لتحزن، كان يجب أن يجدوا ما يأكلونه خلال اليوم. ولأن عالم الشحاذة أصبح مكتظاً، ولم يعد مقصوراً على المنبوذين والمهمشين، بل غزته كل طوائف المجتمع، وتقاسمته كما لو كان مهنة رسمية، ولأن عالم النظافة التي كانت الحكومة ترعاه شكلياً تلاشى، فقد ضاع هذا العالم الحزين، وبقي تحدي البقاء هو الشغل الشاغل. وجبة مكونة من خبز التنور وفاصولياء بصلصة الطماطم والكزبرة الخضراء كانت هدية يُحتفى بها. شاركت سلمى في صنعها، وهي تفكر كيف أنها ستسأل علي عن الوضع الاقتصادي لقرى الجنوب، وإن كان لديهم ما يزرعونه ويكتفون به بعد أن دمرت حرب الهويات عمليات نقل الخضار من الشمال إلى الجنوب.

تكتب سلمى لعلي:

" فعلاً، يجب أن نلتقي، لكني ما إن أستعيد هذا العالم القذر قبل ذهابي للنوم حتى أستبعد كل فكرة للسعادة. إنّ حياة كهذه هي عقاب محض، أحس كما لو أني ألعوبة العوالم العليا،

أضحوكة مجالسهم النهارية، لذا أخشى أنه ما إن نلتقي فستصعّد العوالم العليا مزحتها، ونصبح أكثر تمزّقاً".

"لا" متحفظة تكتبها سلمى في فقرة. لم يكن ذلك السبب كما تعرف هي، ورغم أن علي شاركها الفكرة الأدبية، إلا أنها خبأت ذنباً إضافياً، ما الحرب إن لم تكن هذه؟ إن لم تكن بشرتها السمراء الداكنة وعائلة أمها، وهذا النبذ القاتم لمجتمع يمضغ أجزاءه ويلوكها؟ ليست الحرب فقط صور الأشلاء وهدير الطيران، وليست الشوارع المهدمة وعمليات الترحيل، ليست المخفيين والمغتالين. الحرب أيضاً هذا الإحساس الشائن بالعار، بحقيقة الذات، بعدم الإفصاح عنها، بدفنها، بالتناقض. كانت تؤمن بطيبة علي، لكن الجسد موضوع لا علاقة له بالطيبة، سيكون علي طيباً جداً لو أنه أحد مندوبي التنمية البشرية لمخيمات عائلة الأم، لكنه لن يكون طيباً إن اكتشف أن من يحب افتراضياً هي نصف "خادمة"، نصف كاذبة، ونصف منافقة أيضاً. وصمت سلمى نفسها بنفسها، ولم تنتظر علي ليفعل. وفي أفكارها تلك كانت تنتقل من الألم الكبير إلى الكراهية المطلقة، لكنها ومع ذلك تواصل حكاياتها الليلية مع علي، مارّين بكل ما يحدث في البلد، متناولين قضاياه ومحللين المصائب اللامنتهية. يتخلل ذلك حكايات شخصية، دعابة، وبالطبع غزل وحب واحتياج.

"ليالي الحب والحرب"، كما يبتسم علي ويذوب قلبه.

لقاء نادية بسلمى

تحكي الجدة لنادية حكاية الدجاجة والبيضة، لتعلّمها ألا تستخف بمتاعب ومصاعب الآخرين. تقول الجدة: ذات مرة ابتهلت أمٌ للخالق أن يجعل ولادة ابنتها سهلة، قالت: اللهم سهّل على ابنتي وضْعها كما جعلته سهلاً على الدجاجة. لكن تلك الأم لم تكن تعرف كم تعاني الدجاجة لحظة وضع البيض. فالدجاجة بسبب الألم تغيب عن الوعي لسبع مرات متتالية خلال وضع البيضة. لذا وبسبب دعوة الأم، تتالت على الفتاة المسكينة إغماءات الألم، وفي السابعة فارقت الحياة.

تضحك نادية غير مصدِّقة حكاية الجدة، لكنها تفكر فيها على أيّ حال، وتقرر نقلها لوداد لحظة لُقياها.

في الشتاء انضمت نادية لحملة على الفيسبوك تُعنى بجمع الأغطية والملابس ليتم توزيعها على الفقراء. كانت قد عرفت لعبة الخروج، ولم تكن بحاجة لأن تخبر أحداً إلى أين تذهب. فكرت بأنها قد تصادف شخصاً مدهشاً خلال هذا. كان العديد من الشبان قد استثمروا في حملات كتلك. فعلٌ خيري، لكنه يسهم في العمل لدى منظمات المجتمع المدني. انتشرت حكايات عن أناس تلقوا الدعم بالملايين من منظمات خارجية، ابتدؤوها بأعمال خيرية، وانتهوا بحسابات بنكية وفواتير مزورة. لم تكن نادية تعرف هذا بعد، كانت الخطة أن تجد شيئاً جديداً، أو أن تلتقي بأحدٍ جديد. مغامرات ما بعد الظهيرة لم تعد ترضيها، وتعلق وداد المرضي بها أصبح لا يُحتمل. كانت ترضخ لطلبات وداد بإعطائها تقاريراً آنية عن كل ما تفعله. غيرةٌ بلهاء من كل ما عداها. وبما أن نادية تعلمت الكذب بشكل محترف، عرفت كيف تتملص من وداد وتعلّقها الفج، صنعت مساحة - تراها وداد هائلة - بين عالميهما، وبشبكة من الأكاذيب المؤرخة في تسجيلات الواتساب، لم تخطئ نادية أبداً، كانت تعرف إلى أين تذهب، تراجع ما مضى، وتمضي في الكذبة نفسها.

لم تعد نادية تنتمي للبيت. لم تنفر منه، لكن عالمها ابتعد، ومضت في وهم نوستالجي ليس منه فكاك. الأحلام السابقة نفسها، لكن بتعديلات أكثر ملائمة لوضعها الذاتي. لم تفوت فرصة تستطيع استغلالها لتكون في الخارج بين أناس آخرين. لكنهم كانوا جميعاً على السواء: ينفثون الملل، والعادية، رتابة ونفاق، تَصنُع بأن يكونوا غير ما هم، لكنهم أعفن من أن يكونوا ما يدّعون. راعتها تفاهة الشبان، وأذهلها لحد ما الفجور الذي كانت تتعاطاه الشابات في مجالس قات وداد، وحين دلفت لحمام النساء في إحدى الكافيهات، وقرأت التحذير المكتوب بالعربية والإنجليزية بأنه «إذا ما كانت فتاتان معاً في الوقت نفسه في الحمام، فسيتم اقتحامه» ضحكت ملء المكان. كان ذلك شيئاً يستطيع إضحاكها في منتصف الليل، وفي مجتمع الحرب.

تشاهد نادية كيف أن الجميع منهَكون، متربِّصون، جاهزون للقتال، ينزلقون ببساطة وسلاسة نحو أيّة رذيلة ويسمُون عالياً مطالبين بالفضيلة. ومثلما كانت فئة تَحرق المجانين في الشارع، وتسحل جثث المحاربين الأعداء، كانت هناك فئات تتسلل متخفية إلى البيوت لتوصل للناس اللقاحات الممنوعة بحجة «الغزو الخارجي». وتلك الممرضة التي تتوسل للأم أن تسمح لها بتلقيح طفلها، لن تخشى الاعتقال من الميليشيا المانعة للقاح، بقدر ما تخشى أن يكتشف أخوها في البيت أنها تتسلل إلى البيوت عارضة اللقاح.

أما نادية فلم تصنَّف ضمن أي فريق، لم تقم بعمل حقيقي يُحسب لها كي تنتمي لفئة الصالحين، ولم تصبها لوثة مجتمع الحرب. تقف هناك باستقرار الطبقة الوسطى التي لم تفقد راتبها ولا منزلها، محايدةً لم تعرف الجوع، ولو أنها عرفت رعب الحرب. أبوها الذي احتفظ بوظيفته في القطاع الخاص، ابتهل بشكر وامتنان حين رأى كل زملائه يتساقطون. يتذكر ذلك الشاب الذي بكى بحرقة حين سُرِّح بعد أسبوع واحد من بدء الحرب، استدعاه الموظف الفرنسي قائلاً له بمهنية عالية: لا مجال للعمل، نحن راحلون. توسل إليهم أن يحتفظ بالهاتف الذي حصل عليه ليقوم بمهام المبيعات، ليكتشف بعد ذلك أن قيمته كانت قد اقتطعت من مستحقاته. حكى الأب تلك الحكاية عشرات المرات خلال سنوات الحرب، كانت نادية تفكر أنه لا بد أن يحلم به، ولا بد أن يوظفه لديه في كل مرة ينشئ فيها شركة خلال ساعة القات السليمانية.

أعلمت كل من في البيت بأن صديقة لها ستتبرع بالملابس القديمة لجيرانهم الجوعى. تحمست الأم، وبحمولتها ومبلغ سيارة الأجرة الذي تقاضته من الأم مسبقاً ليكتمل فعل الخير، شدّت نادية الرحال لتقابل المجموعة فاعلة الخير. كان هناك فتاة تظهر جزءاً من شعرها، وتُدخِل في كل جملة كلمة إنجليزية، و لديها رائحة بستان، وكان هناك فتى ضئيل الهيئة يرتدي بنطالاً أبيضَ يلتصق بعظمه، وفتاة ثالثة ترتدي النقاب، ويبدو أنها تجد نفسها مهمة للغاية، إذ كانت تتحدث بلغة الاقتراح غير القابل للنقاش، وعند كل حديث تضرب مثلاً حكاية عن نفسها. ثم انضم للمجموعة مراهق غرّ، لم يعرف كيف يقدم نفسه. لم تقل نادية الكثير، اكتفت بتقديم نفسها. وفي الطريق إلى المكان المعتزم تقديم الملابس فيه، غرقت نادية في خيبة الأمل: ليس هؤلاء من كانت تتوقع. كانت الفتاة ذات الأهمية تقود سيارتها باحترافية، جلست الفتاتان والمراهق في الخلف، وفي المنتصف، قررت نادية ألا تنشغل بالطريق، كان كابياً مريضاً، أناس يجوبون الشوارع كأنهم بدون وجهة، ويشبه فيلماً يصوِّر عالماً موبوءاً. انفصلت نادية عن الواقع، شاهدته كأمّا لا تنتمي إليه. كل أولئك الرجال بملابسهم الرثة، يقفون وراء بسطات الخضار والملابس والأشياء غير المهمة كل أولئك النسوة اللواتي يسترحن على الأرصفة، ولا تستريح أيديهن المتوسلة للصدقة. ممن الصدقة؟ من أناس أيضاً نحيلي الأجساد، زائغي النظرات. لا يدهش هذا نادية على أيّ حال، كانت تعرف كل هذا، تعرف الأصوات والروائح والكلمات، تعرف نظرات النساء تحت البراقع، وإصرار الصبية المستفز، تعرف النظرة التي ترميها الشابات على سائقي السيارات، وتعرف قبل هذا كله، كيف يفكر الطرَفان: مجتمع الجوع، وشراكة الانحلال.

أوضحت الفتاة ذات الأهمية أن الخطة تقضي بزيارة سريعة لمخيمات المهمَّشين خارج المدينة، الملابس التي قسمت على أكثر من كيس بلاستيكي سيتم توزيعها على خيام مختلفة. ولأن هؤلاء الناس - كما وصفت - غالباً ما يكونون أسرة واحدة، فسيتقاسمون ما جُلب لهم. حاولت الفتاة بخصلة الشعر أن تضيف شيئاً ما، لكنها قوبلت بالتجاهل، أما الفتى ببنطاله العظمي، فقد استدرك بما اعتقده قولاً مضحكاً. لم تحمل نادية أية ضغينة تجاههم، ولم تقرر ما إذا كان ما قالوه يعجبها أم لا. ركزت في الجبال الحمراء التي تحيط بالطريق، في الرجل الذي يرتعد على مقربة من السيارة، بالصبية الذين يتقافزون حفاة. كان برد المدينة جافاً وقذراً، والفتية احمرّت خدودهم، وتشققت بسبب الصقيع. رمت لهم نادية في خيالها بصرة الملابس التي جلبتها، وبكل ملابسها وأحذيتها، وبطانيات أمها المخبأة في أعالي الخزانات، ثم أعدت لهم عشاءً ضخماً. وهناك على مقربة وقفت تدخن سيجارة اشتاقت لها، ولم يكن في خيالها، ولا مشاعرها أي ألم أو عطف، أرادت فقط أن تنام على صورتها تدخن سيجارتها، وكل الصبية يضعون زيوتاً غالية الأثمان على تشققات خدودهم وأقدامهم.

عبرت السيارة ببطء في الجولة المزدحمة، متدفقة إلى الخارج في طريق سريع يخلو من المتسولين والباعة والراكضين. تجمد العالم فجأة، وفي المخيلة التي غزتها الأغاني الأجنبية الصادحة من السيارة، نامت صورة المدينة. أسى يمزق الذاكرة، وحنين لعالم لا تكون فيه مسؤوليات. تصدق نادية مقولة فتاة الفيسبوك التي قالت أنها ليست الله لتحمل ذنب كل هؤلاء، وأن أقصى ما يجب عليها أن تفعله هو أن تهمس في سرها: أنا آسفة. رددت نادية بدون أسف: أنا آسفة.

في حي المهمشين، تقافزت فتاة الأهمية ممسكة بفتاة الخصلة حول برك الماء الصغيرة. وكما في نزهة، بدتا مشرقتين، وانكمش المراهق الذي اخترع حديثاً مع فتى بنطال العظم. بقيت نادية بملامحها الطبيعية، لا امتعاض ولا استهجان. كان الوقت عصراً والشمس باهتة، وفي البيت الحجري المكون من غرفة يلتصق بها، كغرفة ثانية، طربال أزرق قديم تجمعت تحته أدوات الطبخ، وقفت عجوز ناحلة على الباب، متسائلة لكن بابتسامة ساذجة، تنظر لفتاة الخصلة نظرتها لكائن خرافي الجمال. اتجهت إليها فتاة الخصلة، قبلتها على خدها، وأخبرتها أنها فقط أحضرت ثياباً مستعملة. شرحت العجوز بابتسامة خائفة من أن تغير الفتاة رأيها حين تراها وحيدة: كلهم في الخارج الآن، لكنهم سيعودون، الكثير من الأولاد وأمهاتهم، نعم نعم يحتاجون الملابس. لم تقل نادية شيئاً، ولم تقْدم على شيء، استمرت الجولة، وفي مبنى شبيه لكن بطربالين اثنين، سمعت نادية نواحاً، اقتربت المجموعة من المكان، خمس نسوة كن يجلسن في الداخل يحطن بإحداهن، كان بكاءً مكتوماً ونحيباً بدون قوة. بدت امرأة كأنما انتزعت من معركة من بين النساء المحيطات، كانت شابة بجسد قوي، تبكي بصمت، تراجعت المجموعة، وخشيت أن تقتحم لحظة الألم تلك. لكن نادية تقدمت فجأة، كبر ثقب في أحشائها، وكادت تبكي قبل الوصول، دفعها ألم وغضب للبيت بطرابيله الاثنين، وثلاثة جدران من الحجر. تفاجأت النسوة بذلك الاقتحام، وهبت الفتاة الشابة من مكانها تواجه نادية:
- نعم؟

- نحن هنا لنوزع ثياباً للشتاء

- آها، أنت من «حملة غطاء الشتاء» على فيسبوك

- أووف - نادية بدهشة حقيقية - تعرفينها؟

- أعرف كل شيء، ردت الفتاة بجفاء. هنا بيت موت، هذه المرأة فقدت ابنها على الحدود، شمال وجنوب، بإمكانك ترك الثياب والذهاب، شكراً لكم على أيّ حال. ثم رفعت ناظريها باحتقار لبقية المجموعة.

- هل بإمكاني معرفة اسمك على الفيسبوك؟ بدون تفكير توسلت نادية، ثم أردفت مسرعة: ليس لأغراض دراسة، أقسم لك.

نظرت إليها الشابة مستغربة، مدت لها نادية تلفونها متوسلة، وحينها رفعت إحدى النسوة عينيها منادية إياها: سلمى، قدمي لهم ماء، واقترحت عجوز: سلمى أعدي الشاي..

- كلا، كلا شكراً، سارعت نادية. فقط سنضع هذه الصرة هنا. ثم التفتت من جديد للشابة مبتسمة بأمل: سلمى، هل لي أن أتشرف بإضافتك على الفيسبوك؟

على مقربة كانت فتاة الخصلة تبكي متأثرة. في حارة اليهود كانت العرّافة تقلب كأساً من القهوة، وفي شارع جانبي كان علي يرتعد من البرد، وهو يفكر بسلمى، وفي مبنى دافئ بأثاث فاخر، كانت وداد تفكر في خياراتها للمستقبل، وبعيداً كان قبر ماجدة يرزح تحت قوة المطر، بينما تبتهل لها الجدة بالرحمة، وعالياً في السماء حلقت طائرة، وعلى الأرض اهتز هاتف فتاة الأهمية بأخبار انفجارات في مدن قريبة. لكن لو جمعت كل قصص الدنيا، ما كانت لتكون مثقال ذرة مقابل أن تعود نادية بسلمى في هاتفها.

البحث عن أسير

في المدينة، يعمل علي كسفير غير رسمي للشؤون الإنسانية بالنسبة لقريته: يرافق الطلبة الجدد إلى الجامعات، يستقبل المرضى، ويذهب بهم إلى العيادات الخاصة والمستشفيات الحكومية، يبحث عن العجائز التائهين في "اللوكندات"، يُفرج بالوكالة عن رهونات الرجال العائدين إلى القرى بعائلاتهم، تاركين لدى البقَّالين وبائعي الخضار خواتم الزواج وأقراط الأمهات وأشياء أخرى كانت ثمينة وغالية قبل الحرب. يتلقى علي الاتصالات من "المندوب الرسمي"، والدته، ومن جميع الأهالي الذين لديهم مصلحة تخصهم في المدينة، لكنها أبعد وأخطر من أن يصلوها، وكذلك أقل ألفة ومحبة.

يتلقى هذه المرة اتصالاً يحمل طلبين اثنين: الأول أن يستقبل العجوز أحمد علي في محطة الحافلات، والثاني أن يرشده ليجد المعتقل الذي يرزح فيه حفيده. لم يكن الشيخ المسكين قد خطا بقدمه أرض المدينة المجنونة أبداً في حياته، شاب وكبر في جبال قريته وقريباً من المدينة الصغيرة على البحر. لم يقرر أن يجرب زيارة هذه المدينة حين كانت تلك الزيارة أقل رعباً وأخف وطأة من الآن. لكن بعد هذا العمر الطويل، الذي شاهد فيه كل أبناء جيله يموتون وشاهد أولاده يشيخون، مسّته الحرب بنارها مباشرة، ولم تترك لديه الخيار لأن ينأى بعقود سنينه السبعة بعيداً عنها. توفي ابنه الأكبر فجأة بذبحة صدرية، تاركاً ثلاثة فتية وبنتاً واحدة. كبر الأولاد تحت جناح الجد، وحين أقبلت الحرب، مدت أذرعها للقرى البعيدة، أصابت ما أصابت، واختطفت أرقاماً لا تحصى من شباب القرى.

كان علي قد توقف عن إحصاء عدد القتلى من شباب القرية على الجبهات. في إحدى حكاياته ركيكة اللغة، وصف كيف يلتقي أبناء عمومة على الجبهات، فمثلاً يعيش الشاب الأول في القرية التي تتبع إدارياً ما تبقى من الحكومة، بينما يعيش الشاب الآخر في المدينة التي تتبع الميليشيا، ويتفق كل أولاء الشباب على مصلحة واحدة: المال. يريدون مالاً بأيّة طريقة. ما الذي يفعله شبان العشرين إن لم يكن هناك عمل ومال وقوة؟ كانت الحرب هي

الملجأ الأخير، وفّرت الدول الغنية داعمة الحرب كل الدعاية التي تصوِّر الحرب كفرصة عمل لا تفوَّت: رواتب شهرية مستديمة، حياة رغدة، أداء واجب ديني بالمعنى الحقيقي.. انطلق الشباب أفواجاً للحصول على مئة دولار شهرياً، قد تكلفهم حياتهم أو أجزاءً منها. لم يتبقَ بيت واحد في القرى لم تصله جنازة، بل إن أمه انتحبت لخمس دقائق على الهاتف، ناقلة له حرفياً قصة صاحب أول دكان في القرية، وكيف فقد أبناءه الثلاثة: " في كل عيد يا بني، عادوا إليهم بخبر موت، خبر فقط على الهاتف، ليس هناك من أجساد ليودعها الوالدان يا ولدي، حتى الجثث صارت صعبة يا بني"، ولم يسأل علي قط لماذا ذهب الجميع، لكنه فقط كان يسأل إن كان شخص جديد قد انضم. وكان دائماً هناك منضمّون جدد، بالجملة: ماذا نبقى لنفعل هنا؟

جلس العجوز بأعوامه السبعين على رصيف الشارع، بجانب كيس بلاستيكي بصورة مضخمة لعلبة سجائر، "لقد ارتدى أجمل وأجدد ما لديه" فكر علي وهو يشاهده بمعوزه البني وقميصه الرمادي. لكنها لم تكن زيارة تستحق التأنق. كان العجوز هادئاً مركِّزاً في نقطة واحدة من الشارع المقابل. استغرب علي أنه لم يكن مأخوذاً بالطبيعة الجنونية للمدينة، وحين وقف أمامه مرحباً، افترَّ العجوز عن ابتسامة كالأطفال. اقتاده علي للشقة التي في الأعالي، ترنّح العجوزعلى المظلم، ظل علي يسنده ويحمل عنه كيسه البلاستيكي. حين وصلا، كان علي قد أزاح قليلاً من الفوضى، وأخلى للعجوز فراشاً قديماً لينام عليه. ومثل أم رؤوم، لم يوفر جهداً ليُبقي العجوز هادئاً، دافئاً وممتلئاً.

في اليوم التالي بدأت رحلة البحث عن الشاب الأسير. كان علي يعرف منذ البداية أنها مهمة مستحيلة، لا يمكنك قط أن تزور أسرى في هذه المدينة. بإمكانك أن تقابل قادة الحرب أنفسهم، لكنك بأي حال لن تزور أسير حرب. كانت الميليشيا بالتعاون مع قوات "التحالف"، تقضي أولاً بأول على وجود الأسرى، إذ تتعمد الأولى تكديسهم في مكان واحد، ثم تهرول طائرات النجدة لتقصف المكان ذاته فتحيله بقايا بشرية. تنفض الميليشيا يديها. وفي صحف الدول الغنية تظهر صورة لبقايا دبابة من موقع ما حول العالم أو من فيلم ما، وخبر: "استهداف موقع عسكري.." لكن علي لم يشارك العجوز كل هذه الأخبار، كل ما كان هذا الأخير يعرفه عن الحرب هو جبهات بمسميات مختلفة وقتلى بدون إحصاء. التفاصيل لم تكن متاحة له، ولم يكن ليهتم بها حتى لو أتيحت. لكن مع كل المستحيل، لم يتوانَ علي عن استخدام ما استطاع من اتصالاته كي يجد خيطاً واحداً لمواقع المعتقلات، ومعرفة إن كان من الممكن زيارتها. وباسم الصبي وصورة قديمة من فيسبوك، ثم بأسماء الجبهات التي شارك فيها، وبمعلومات من تبقى على قيد الحياة من زملائه، عرف علي أن الصبي قد يكون في مدينة قريبة، وليس في المدينة ذاتها. يتبقى أن يحصل على إذن بالزيارة إن كانت هناك زيارة. وكان

علي بطبعه البشري الأناني، بمقدار ما هو راغب بأن يساعد الشيخ ويذهب به إلى المعتقل، بمقدار ما كان خائفاً أن يورطه هذا بما هو أكبر منه ولا قدرة له عليه. سيكون اسمه في دائرة الشك، في الكشوفات غير المنتهية للمشكوك فيهم و"غير سليمي النية"، سينبش تاريخه حتى أبسط تغريدة على تويتر. لكنه وصل إلى النقطة التي لا تراجع فيها، وفي كل مرة ينظر فيها للعجوز ينهر ذاته بقسوة، وبأنه لربما يكون يوماً في المعتقل ذاته، ويبحث والده عمّن يمكن أن يقوده إليه.

حاملاً ورقة عليها توقيعات مختلفة، انكمش علي أمام الحراسة التي تحيط بالمكان، ردد الاسم أكثر من مرة، وشرح أن العجوز يريد فقط رؤية الشاب لا أكثر ولا أقل، وأنه قد تلقى الموافقة من الشيخ فلان الفلاني، والضابط فلان الفلاني، وها هي التواقيع. نظر الرجل ببندقيته الضخمة للورقة ورد ببرود: "نعرف ذلك، انتظرا في ذلك الممر". سار الرجلان ببطء نحو ممر صغير يفصل المبنى عن جدار السور الضخم، في منطقة ضيقة نمت فيها أشجار بدون أوراق. لم يكن هناك كرسي أو ما شابه، كان الشيخ متعباً، فجلس القرفصاء بجانب علي المتوتر، انتظرا لأكثر من نصف ساعة قبل أن يهل في البداية عسكري شاب بطاقية معوّجة، ثم يتبعه رجل مسلح بالزي المدني و"الجنبية" تحيط كرشه الضخم. تفحص المسلحان العجوز والشاب، ودارت محادثة مليئة بالشكوك والأخذ والجذب، ثم اختفى المسلحان. ومن جديد عاد الرجلان ينتظران بصمت. وفجأة قطع العجوز الصمت وقال : لن نراه، لن يَدعونا نلتقيه.. كان علي أيضاً على وشك اليقين بذلك، لكن لهجة العجوز أوصلته بسرعة لليقين، ومع هذا انبرى يشد من عزيمة العجوز، ويقنعه بأنهما سيلتقيانه وسيكون بخير. لم يعلق العجوز بكلمة، ولا حتى ب"إن شاء الله".

ساعة أخرى عاد بعدها الرجل بزيه المدني وسلاحه الثقيل، مد يده مربتاً على كتف العجوز، قائلاً:

- عد إلى المنزل يا حاج، حفيدك في الداخل مرتاح يأكل ويشرب، لكنك لن تستطيع الدخول وهو لن يستطيع الخروج، لقد أعدنا التواصل مع فلان الفلاني وهو ألغى فكرة الزيارة، حاول أن تربي بقية أحفادك يا حاج، وأخبرهم ألا يقاتلوا مع الفئة الباغية، مع السلامة يا عم، روح ارتاح في البيت".

لم يكن علي في موقع يستطيع الاعتراض فيه، الجد الذي ثبت عينيه في عينيّ الرجل المسلح، حمل بيده الجافة الكيس البلاستيكي الذي يحوي ملابس الفتى من أمه وعلبة صابون وبسكويت، حملها، ولم يعلق بكلمة على توصيات الرجل. سار مبتعداً ببطء يحمل سنينه

وأوزار الحرب كلها. كان يعرف هذا منذ البداية، ربما يكون الصبي قد مات، ربما لم يعيروا الاسم حتى اهتماماً، لكنه حين يعود، حين يصل القرية، وقبل أن يواجه نظرات الأم والصبية الآخرين، سيموت. وإن لم يفعل فسيصمت إلى الأبد، سيبدأ هذا الصمت منذ الآن.
حاول علي ما استطاع أن يفتح حديثاً في الطريق إلى المنزل، لكن العجوز كان قد انزوى في زاوية أبعد ما تكون عن ضجيج علي. فقط طلب منه أن يذهب به مباشرة إلى محطة السيارات لأنه ينوي العودة اليوم إلى القرية. "لكن ما زال لديك ملابس في المنزل!" شرح علي. رد العجوز بأنه لن يحتاجها بعد اليوم. توسل إليه علي أن يذهب به لتناول الغداء، لكن العجوز أمسك بيده راجياً إياه ألا يلحّ عليه. كانت سيارة البيجو المتهالكة ستنطلق تماماً بعد ساعة إلى مدينة أخرى، ومن هناك سيضطر العجوز لأن يستقل سيارة نقل ثانية توصله حتى حدود قريته. جلس العجوز بجانب شاب ناحل في المقعد الأوسط، وحين خرج الشاب للمرة الأخيرة قبل انطلاق السيارة، توسل إليه علي أن يهتم بالعجوز، وأن يحاول أن يأخذه معه ليأكل إن توقفوا للأكل. تأثر الشاب حتى كاد يدمع، ووعد علي أنه سيرعاه خلال الرحلة. أخيراً، أدخل علي رأسه من النافذة، قَبّل العجوز على رأسه ثم على خده، ثم ابتسم وهو يطلب منه أن يوصل السلام لأمه.

انطلقت السيارة، كان قلب علي مدهوساً بملايين الإطارات، كان قلب علي هو قلب العجوز، كان قلب علي هو قلب الفتى الذي لن يعرف أن جده ورائحة أحبائه كانت فقط على بعد حائط منه، كان قلب علي هو كل تلك القلوب التي دُهست، وعبر عليها العالم دون حتى أن يلتفت لأثر حذائه عليها.

بهجة الحكاية

يحكي علي لسلمى حكاية الجد وحفيده الضائع، يبث لها ألمًا ينقله"الواتساب" بوجوهه الصفراء المقيتة، يقول لها في النهاية إنه يحتاج لشيء واحد، لكنه يخشى أن يطلبه مخافة أن " تفهمه غلط". تنكمش سلمى تحت بطانيتها القديمة وتبتسم بينما تسأله: جربني، ما هو الشيء؟ قال لها علي: أريد حضناً، ثم بعث لها بصورة القلب المكسور. لدقائق اتسعت الفجوة اللطيفة في أحشاء سلمى، ووفقاً للتقاليد لم ترد سلمى بشيء، تجاهلت الطلب، ثم بدأت حكايتها هي. كان الاثنان يتبادلان الحكايات، وقد طورا تقنية حديث يقضيان بها الليالي والأيام، دون أن يتورطا في الملل الناتج عن المحادثات السطحية، التي ينخرط فيها عادة كل من هم حديثو المواعدة الافتراضية. وحال تنتهي الحكاية التي يجب أن تُروى بتفاصيلها المملة، يستلم الآخر دفة الحديث. وغالباً ما كانت الحكايات جريحة، منهكة، لكن لم يكن أي منهما ليغير التقنية.

قالت سلمى أنها غيّرت حكايتها، وأنها ستبدأ حكاية سعيدة. لم يعرف علي، الساذج بطبعه، أن ذلك سببه طلبه الذي خشي أن تفهمه "غلط"، لكنها أحسنت فهمه وتلك الفجوة الصغيرة التي ما فتئت تتسع كانت مصدراً لسعادة لا يمكن التكهن بها، لذة الشعور الأولي بالحب، تلك العضة الناعمة لوحش الرغبة والشوق. كان مزاج سلمى ليلتها في أحسن ما يكون، عجزت عن التنفس الطبيعي لكنها كانت ملأى بالهواء، ولأسباب عديدة تخيلت أمها، شابة غضة، منبوذة اجتماعياً، تذوب من تلك العضة في مواجهة الرجل فاتح البشرة، الذي يتربع على عرش المجتمع كما تعتقد. أحست بالسعادة لأمها، إذ بغض النظر عما تقاسيه هذه المرأة الخانعة، إلا أن معرفة سلمى بأنها كانت واقعة في الحب يهب الابنة الرضا والارتياح.

تفكر سلمى، تعيد تاريخها كله بينما يأخذ علي حمامه الليلي القصير بمائه البارد.تسترجع الحكايات، ثم تقرر ما الذي ستحكيه، إذ لم يكن سواه الكثير. بدأت سلمى قبل أن يكمل علي حمامه البارد، ويعود مرتجفاً إلى فراشه:" في مرة، في الصيف، سافرنا جميعاً لقرية أبي، كنت في

العاشرة من عمري، كانت القرية جميلة في الصيف، مياه وأمطار، عيون في الوادي، وعصافير تزقزق منذ الفجر. كنت أنهض غبشاً لأرافق ابنة جيراننا الذين يسكنون الدار المجاورة، كان اسمها ماجدة.لشهر كامل رافقتها في غزواتها الصباحية نحو عيون الماء في الوادي، كانت أكبر مني ربما بخمس سنوات. أجمل شابة رأيتها في حياتي،وعلى الرغم من أني لا أتذكر تفاصيل وجهها بالضبط لكني متأكدة أنها الفتاة الأجمل في نظري.

صادقتني منذ لحظة وصولنا دار جدي القديم، إذ استقبلتنا بخبز طازج وبدجاجة ذُبحت وطُبخت على شرفنا. ابتسمت لنا ورحبت، ثم أطلعتنا على تفاصيل الحياة. قالت أنها وأمها نظفن الدار، واعتذرت حيث أنه ما زالت هناك أماكن أخرى مليئة بالغبار. في البداية ذهلت من فكرة أن الجيران في القرى يقومون بتنظيف بيوت جيرانهم، ثم اكتشفتُ بعدها أن ذلك فقط لأننا زائرون وبصفتهم حاملي مفاتيح دار الجد، كان لزاماً عليهم حسب دفتر القواعد القروي أن يجعلوا كل شيء لائقاً حين وصولنا، ومن ضمن كل شيء كان التنظيف والدجاجة الشهيدة.

أصحو ما إن يؤذن للفجر. كنت أكسل من ذلك بكثير، لكن تلك الفتاة لو أمرتني أن أقفز من أعلى الدار لكنت قفزت بدون تردد. كنت أنام في القرية بسعادة لأن النوم يعني أن ساعات فقط تفصلني عن رحلة الفجر المنعشة، حيث أكون معها لوحدنا وتحدثني هي بلهجتها القروية المضحكة حكايات عن الجبال والمراعي والأغنام ونميمة عن الفتيات الأخريات التي سنلتقي بهن فيما بعد عند نبع الماء. كانت هي أول الواصلين، دوماً أول الواصلين، كانت تضحك بسعادة لأي سبب، لم أشاهد في حياتي أبداً أسعد من تلك الضحكة، تمتلئ بها عيناها ثم تنفجر مرة واحدة. وكمراهقة في بداياتها، كنت أتأمل فاحصة كل تفاصيل جسدها، كنت أتنهد داعية الله أن يهبني ما وهبها، وكانت تعرف تماماً ما تملك من السحر. لكنها كانت على درجة من الحياء تمنعها من استعراضه بالطريقة التي يستحق، ومع هذا فهي لم تتأخر عن القفز لتهز ثدييها اللذين لم يسجنا بحمالات الثدي السخيفة، ولم تتوانَ عن إظهار تدويرة ردفيها، أو نحول خصرها. لكني لا أعتقد أن أحداً قد لمح استطالة عنقها.اشتم رائحة شعرها، ألمس شفافية فوديها. مثل كل فتيات القرية، كان جسدها هناك، لكن يُرى منه فقط ما استطاع اختراق الفساتين بألوانها كلها، وما تحدى إسدال أغطية الرأس حتى منتصف البطن.

نتجه نحو الوادي بينما تهمس في أذني كي لا تحس بنا البيوت التي أضاءت من برهة. كنت أظل شاهقة ببصري إليها، ولأني لم أكن قد تعلمت بعد المشي في تلك الطبيعة المختلفة تماماً عن المدينة، كانت تضطر دوماً للإمساك بي، وأحياناً أتعلق بها فتصعد بي منحنى أو تهبط بي منزلقاً. وقد رفضتْ بشكل قاطع أن أجلب الماء معها وحين رافقتها لمآرب أخرى، رفضت أيضاً أن تدعني أتصرف كما تتصرف هي. كنت قد توسلت إليها حتى الدموع، أردت أن أكون

مثلها، أن أتبختر حاملة الوعاء البلاستيكي للماء على رأسي دون أن أسقطه، وأن بضربة واحدة بالفأس أطيح بالغصن الغض من موقعه فيهوي طريحاً أمامي، أن أقبض بكفي الصغير على ثدي البقرة فتستكين وتنفخ من منخاريها الكبيرين، فأناجيها بمحبة كأنها طفلة ثم أقبلها ما إن أفرغ من حلبها. أردت أن تحدثني أمي بنفس الطريقة التي تحدثها بها أمها: شيء ناعم من محبة وإعجاب، أردت أن ترتمي أختي الصغيرة في حضني، تماماً مثلما تفعل أختها فتعصر وجنتيها وتضمها. لكن أكثر من كل ذلك أردت أن أحظى بنظرتين فقط: نظرة الشاب الذي ينتظر في الأفجر المغبشة مرورها السريع دون أن يقول كلمة واحدة، ونظرتها الضاحكة التي تتحول للهب وامض ما إن تمر من أمامه. ولكي لا أشك بشيء، أخبرتني أن الشاب يسكن تماماً في البيت المحاذي للطريق. وكانت حقيقة، لكن الشاب لم يكن هناك لأن منزله بمحاذاة الطريق، إذ بعد أسبوع واحد تعلمتُ أن أراقب، لأني بإحساس الطفل عرفت أن هذا شيء خطير جداً ولا يمكنها مشاركتي به، وبالتالي لا يمكنني أبداً إثارة هذا الأمر. ثم وكمن اكتشف النار، لمحتها تبتسم له بينما نمر مسرعات. كان ذلك أهم اكتشافاتي، شعرت بسعادة لا يمكن وصفها، على الرغم من الغيرة التي أكلتني. أردتها أن تحبني أنا، أو على الأقل أن تحبني كما تحبه، لكن تلك النظرة كلهب ساحر كانت تجعلني أشتعل وتنسيني الغيرة لصالح فكرة واحدة: أريد أن أكبر الآن وأصير هذه الفتاة!

لن تصدق إنْ أخبرتك أني توسلتُ لأمها أن تتبناني! لم أشأ العودة للمدينة، انتحبتُ ليلة سفرنا وتضرعت لأمي أن تتركني هناك، ووعدتها بأني سأزورهم في الإجازات، لكن بالطبع لم يأخذ أحد كلامي على المحمل الجد، وسافرنا في اليوم التالي. ولسنين، ظللت أسأل أمي إن كان بإمكاني أن أبعث لها برسالة بريدية، لكن أمي لم تبال بهذه الأمنيات. ولم نعد بعدها للقرية قط، كانت هناك دوماً أعذار، وحين بدأت الحرب كان أحد الخيارات أن نعود للقرية، كدت أطير من الفرح، لكن الحرب كانت أسرع من قرارنا إذ تلقى أبي اتصالاً يفيد أن المعارك صارت في أعالي جبال قريته.

حين أفكر بالسعادة والرضى، تخطر في بالي هذه الفتاة، "ماجدة"، وأصلي بكل صدق أن تكون قد واصلت حياتها على نفس المنوال، برضاها وهنائها اللذين لم أشهد لهما نسخة أخرى مشابهة. لا أعتقد أن تلك الفتاة تعرف أكثر من حدود قريتها، ولمَ تحتاج أن تعرف؟ لو كان لي القرار، لن أظل ساعة في المدينة، سأعود لتلك القرية لأتماهى مع كل المخلوقات حولي: مع غبش الفجر، وعصافير الصباح، مع أدخنة المواقد ونداء الأبقار، مع الماء والأشجار وسماء الليل، مع الرعد الهادر في "العصريات"، مع الصمت الوارف ما بعد منتصف الليل، ماذا نفعل هنا في هذه المدينة البشعة على أي حال؟ التقيت اليوم بفتاة توزع ثياباً للمحتاجين، لا أعرف كيف أصف لك الشعور السيء الذي انتابني لحظة وقفتْ أمامي وبدأت الحديث إلي،

ليس من حياة في عينيها، شيء ميت، ورغم أنها تبدو غنية، لكن البؤس واضح من جفاف كلماتها. لقد طلبت مني أن أكون صديقتها على الفيسبوك، وألحت بشكل غريب ومخيف، لن تكون صديقتي ولو افتراضياً، قالت لي أن اسمها نادية".

تنهدت سلمى تتنظر ردود علي، وما زالت الفجوة تلتهم أحشاءها. أرادت أن تخبره أيضاً أنها على استعداد لتحقيق طلبه، لكنها بالمقابل ستطلب المثل.

... بالطبع، رسالة مثل هذه لم تُرسل أبداً.

نادية وطائر الموت

في الضفة الأخرى من الشارع، حيث يقف صندوقا قمامة قذرين محاطين بكومة من أكياس القمامة بعد أن فاضا، توقفت سيارة صغيرة يبدو أنها قديمة من حشرجة محركها، وعلى ضوء كشّافاتها، شاهدت نادية رجلاً يترجل منها مسرعاً، أعاد شيئاً ما إلى كرسي القيادة، ثم قام بخلع الجاكيت الذي يرتديه باستعجال، واستدار مسرعاً ليفتح صندوق السيارة الخلفي. كان يحاول جاهداً أن يخرج شيئاً من الصندوق. وأخيراً حمل على كتفه الشيء، اقتربت نادية من النافذة أكثر وألصقت أنفها على زجاجها لرؤية أوضح. تقدم الرجل نحو كومة القمامة المحيطة بالصندوقين، لكنه استدار عائداً من جديد، وظل لبرهة ينظر إلى الصندوقين والأكوام المحيطة بهما. تحرك باتجاه مقدمة السيارة، يبدو أنه عزم الذهاب للجهة الأخرى من الصندوقين. كان الشارع مظلماً كقبر. منذ زمن طويل لم تعد هناك أعمدة إنارة في الشوارع، ولم يكن هناك ما يضيئها غير كشّافات السيارات والهواتف المحمولة، وبالنسبة لكبار السن عابري الشوارع ليلاً، كانت لهم كشّافاتهم المثبتة على الرؤوس، وفي ليال كثيرة كانت القذائف والرصاص هي ما يضيء الشوارع، لكنه ليس الضوء الذي يفضله العابرون.

عبر الرجل بحمله على كتفه من أمام كشّافات السيارة، ارتعدت نادية المتلصصة بجانب النافذة وهوى قلبها، شاهدت في اللحظة التي خطا فيها الرجل أمام ضياء السيارة يدان متدليتان من على كتفه تلامسان أسفل ظهره. كانت الأخبار تنتشر في المدينة عن أرقام مخيفة من الجثث الملقاة في أكوام القمامة، لأطفال ونساء ورجال، لم تقتلهم الحرب ولا الجوع أو المرض، باعتبار هذا الثلاثي هو مندوب عزرائيل الدائم لليمن. كانت تلك الجثث لأناس قتلوا عمداً، ولم يكن ذلك يقلق أحداً أو يستدعي شعور الصدمة، فالموت في نهاية الأمر واحد. فكرت نادية بهذه الخلاصة بينما ظلت تراقب الرجل المستعجل وهي تعي أنها فقدت القدرة على الحركة والتنفس، حين وصل لأعلى نقطة في كومة القمامة فرمى بحمله عليها. غاص الحمل من ثقله كما استنتجت نادية من الصوت، فشرع الرجل بيديه الاثنتين يخفي ما رماه مستخدما الأكياس المتناثرة. اقترب هدير دراجة نارية، فقفز الرجل من مكانه

مسرعاً لسيارته مطفئاً الكشّافات، جامداً في مكانه حتى مرت من الزواية المقابلة الدراجة النارية بهديرها المزعج. خرج الرجل عائداً لتل القمامة، لكن مستعيناً هذه المرة بالضوء الباهت القادم من السماء. وحين أكمل عمله، وقف لبرهة، نفض يديه ثم مسحهما على بنطاله. وبالسرعة والاجتهاد نفسهما، امتطى سيارته، أشعل كشّافاته وغادر المكان.

كان الديوان (غرفة الجلوس)، يطل على االشارع الذي توجد فيه براميل القمامة، اعتادت الأم مع بناتها اختلاس النظر من زوايا الشبابيك في النهارات حين لا كهرباء عمومية ولا مولدات توفر الطاقة للتلفزيون والهواتف. تتربع واحدة أو اثنتان منهن، وتبدآن التلصص على الشارع ناقلات الحدث للبقية. لكن نادية المولعة بالتلصص طورت العادة منذ بدء الحرب، لتبدأ به وحيدة في الليل حين يجافيها النوم، كانت قد سمعت من الحكايات ما جعلها متأكدة بأنها يوماً ما سترى ما لم يَرَهُ الآخرون. في ليال كثيرة تنتظر نادية أختها الكبرى لتكمل صلاتها الليلية، ثم تتسلل إلى الديوان، وفي الظلام الدامس للغرفة وللشارع، تستمع للأصوات المخيفة في الخارج، وتراقب عبور الناس والمركبات. شاهدت نادية كلاباً تمزق بعضها البعض بجانب براميل القمامة، تابعت أضواء القناصين من على الأبنية العالية، راقبت لصوصاً يعتلون سور المنزل المقابل، رأت بعينيها كيف يغير الرجال ملابسهم، ويرتدون العباءات النسائية استعداداً لاصطياد رجال آخر الليل ثم سرقتهم. كانت الليالي التي تعود فيها بحكاية مثمرة بالنسبة لها وإن كان الحدث أليماً. وفي تلك الليلة، لم تعرف نادية ما الذي يجب أن تشعر به. كانت خائفة وترتعد. لكنها كانت مشدودة برغبة وحشية بأن تتفقد الجسد الذي تركه الرجل، ظلت لدقائق تحسب نسبة الخطر إن هي قررت النزول وتفقد الجثة المرمية:

- يسمع أهل البيت حركتها: خطر رقم واحد ونسبته ٥٠ في المئة.

- يعود المجرم لمكان الجريمة: خطر رقم اثنين ونسبته ٢٠ في المئة، وهي كانت مقتنعة بأنه لن يعود.

- يهاجمها أحدهم بينما تكون هناك ولا تستطيع العودة، الخطر الأكبر ولم تستطع احتساب نسبته.

ثم قررت نادية أنها لو تجاوزت كل ما سبق، فإنها ستحتاج إلى الاستحمام بعد عودتها من الكومة القذرة، وقد تلمس بيديها الجثة، وماذا إن كانت الجثة ما تزال حية؟ تذكرت نادية أفلاماً من هذا القبيل، وعرفت أن الأفلام لا يمكن أبداً أن تكون كالحياة الحقيقية، لا في رومانسيتها ولا في قسوتها. فما كان منها إلا أن أعادت الستارة لموضعها وتسللت عائدة بفكرة

تلتمع في ذهنها، وأحست بالنظافة والراحة. كانت تود فعلاً رؤية الجثة، لكن تخيل رائحة المكان كان أكثر إرعاباً لها.

في الأسبوع السابق للحدث، كان الأب قد دعا إلى الغداء شاباً نحيل القوام ريفيّ المظهر، قال أنه اكتشفه بالصدفة، وأنه قريب من الدرجة الثانية. بالطبع لم تحضر نادية ولا أيٌّ من النساء الغداء. لكن بعد أن غادر الفتى، ظل الأب تحت تأثير سطوة المزاج الجيد للقات، يتحدث طويلاً عن الشاب حسن النوايا، وكيف أنه يكسب رزقه من مصادر متعددة منها نقل حوادث الشارع للصحف الإلكترونية بأسماء مستعارة. تابعت نادية الحديث بدون اهتمام، لكنها في النهاية قررت أنها ستجده على فيسبوك، فربما يكون هدفاً يوماً ما. سألت والدتها عن اسمه، وكانت قد شاهدته متلصصة من النافذة لحظة مغادرته المنزل. ولم تفشل محاولاتها، كان فعلاً على فيسبوك، لكنها استغربت أنها لم تجد أيّاً من قصصه المزعومة منشورة على حائطه. وعلى الرغم من احتمالية أن يكون كاذباً، فقد أضافته إلى قائمتها. وبعد ما شاهدته، قررت أنها ستختبر ادعاءاته وأن الفرصة سنحت لها. وبلا مبالاتها المعتادة، نامت وأجلّت خطتها إلى اليوم التالي.

في اليوم التالي، بعثت نادية برسالة للشاب الريفي، أخبرته أنها تعرف أنه يكتب قصصاً حقيقية من الشارع للصحف الإلكترونية، وحيث أنها تملك حساباً باسم مستعار، كان صعباً عليه أن يكتشف أنها الفتاة التي أعدّت السلَطة التي أكلها قبل أيام وأثنى على تصميمها البديع. قالت له أن لديها قصة من الشارع، وبما أنها فتاة، فهي أولاً لا تستطيع التحقق من تفاصيل القصة، وثانياً لا تستطيع نشرها. انتظرت نادية ساعتين لتجد الرد من قريب الدرجة الثانية مقتضباً بـ: ما هي القصة؟ ترددت نادية، إن لم يستجب لها فستتعفن الجثة وسيعرف المارة والجيران بأمرها، وستكون حكاية مثل مئات الحكايات التي يتبادلها الناس في أيام الحرب.أخبرته نادية أنها قد تكون شاهدة على جريمة، ولا تستطيع إعطاءَهُ تفاصيل كثيرة لكن هناك جثة في كومة قمامة في شارع جانبي، فلو كان يريد التحقق من ذلك فستعطيه العنوان، ولا يحق له أن يطالب بإجابات إن كانت لا تستطيع تقديمها. كان رده بأنه غير مهتم فعلاً، لكنه فقط يريد أن يعرف ما الذي دعاها لأن تختاره هو، خاصة وأن قلة يعرفون أنه يكتب قصصاً للصحف الإلكترونية. سخرت نادية منه في أعماقها مدركة أنه شعر بالتميز والفخر، وأوضحت له أن لديها أسبابها، وأنها تعرف حقيقة عمله من مصدر موثوق وأنه يستطيع الوثوق بها كما وثقت به.

كان الشيء الوحيد الذي تمنته نادية هو أن تشاركه تفقد الجثة. أرادت أن ترى الموت بعينيها. كانت تشتم رائحته في كل زوايا المدينة لكنها لم تلمسه بيديها. تلك الأمنية الوحشية لم تكن

قابلة للمشاركة مع نحيل القامة، وفي المساء أصرت أن تجلب بنفسها الخبز من الفرن المجاور، أمسكت بيدها حقيبتها وفي الحقيبة خنجرٌ مطويٌّ مثل ولاعة ضخمة، كانت قد حصلت عليه كهدية من صديق، تحسسته بينما تعد درجات السلم، كان شعور الموت قد رافقها طوال النهار، ليست حزينة لكنها شعرت بوجوم مخيف. تخيلت نادية يومها يرزح تحت ظل جناح طائر خرافي، طائر الموت الذي لا يتزحزح إلا بإرادته. سقطت ورقة من شجرة قريبة، وقهقه طفل من نافذة مجاورة، تغامز شبان لرؤية فتاة بردفين ضخمين.. لم يكن جناح الطائر الخرافي قريباً منهم. لكن، وقريباً جداً كانت هناك الجثة الملقاة في تل المخلفات. كان الطائر قد وقف عليها حتى اختفت في تفاصيل يومه القذر والكابي. أو ربما لا.. أعادت نادية صياغة فكرتها، وأن جناح الطائر المهيب يخيم على يومها لأنها تعرف الموت، أما الميت فهو لا يعرف الموت وبالتالي لا شأن للطائر به.

"أنه في منزل أهل الجثة، هذا الطائر القذر الملعون". اختتمت نادية الفكرة، وعادت لتفكر في أشيائها الخاصة جداً، بعيداً عن الموت وطائره الخرافي هائل الجناحين. وحين قفلت راجعة من رحلة الفرن، كانت الليلة الماضية قد أصبحت ذكرى، ونست حتى أن تلتفت إلى تلة القمامة بجثته المزعومة.

حرائق

يسهر علي بجانب زميله في الغرفة. كان الشاب قد أصيب بحمى مفاجئة، وبدأت درجة حرارته ترتفع بوتيرة مرعبة. ناوله علي أقراص مهدئات كان يخبئها لليالي الصداع، لكن شيئاً لم يكن ليطفئ ثورة النيران المشتعلة في جسد المريض. وبما أن الأخبار قد انتشرت في الطرقات والحافلات وعلى مواقع التواصل الاجتماعي، فكلاهما كان يعرف أن احتمالية أن يكون قد أصيب بإنلفزنزا الخنازير هي المرجحة، وبما أن الشاب بدأ يغوص في بحار هذيانه بعد منتصف الليل، وترك موضوع الاحتمالات والرعب لعلي وحده، الذي بدأ يفكر في ما الذي سيفعله إن مات الشاب؟

في الأمس فقط كان على لقاء مع الموت في شكل جثة صبي ألقيت في كومة قمامة، ولم يستطع فعل شيء غير أن يثير انتباه المارة حتى لا يبلّغ بنفسه السلطات، فيحتجزونه بدون سبب، إذ أن هذا أبسط ما قد تفعله سلطات الميليشيا الحاكمة للمدينة. قام الشغب الذي أثاره بدوره في استدعاء السلطات. توافد رجال بأزياء مدنية، وآخرون يرتدون أزياء عسكرية مع "صنادل"، وكان هذا المنظر قبل سنوات مثيراً للسخرية، لكنه أصبح جزءاً من هندام العساكر. ويمكنك الإيمان من اللحظة الأولى أن رجالاً كهؤلاء من المستحيل أن يحلّوا لغز الجريمة أو حتى أن يهتموا به. فهم، ومن يديرهم، هم أنفسهم المسؤولون عن وزارة الصحة ومركز الترصّد الوبائي وإدارة المستشفيات الحكومية، وهم أيضاً المسؤولون عن استيراد الأدوية وعن استلامها من المنظمات المانحة. وبينما كان علي يغيّر كمادات المريض، تذكر وجوه أولئك الرجال: سحنات مشوهة بالغباء واللاأهلية، وفي الوقت الذي كان الجميع ينتظر من السلطات أن تعلن المنطقة مدينة موبوءة، قامت بغزوة رهيبة لمحلات خياطة العبايات النسائية لتحرق كل عباية فيها ما قد يثير الغرائز ويلفت الأنظار. كانت النساء تمر بجانب حرائق العبايات، فتتلصص عيونهن بخوف واشمئزاز، مع يقين كلي تبادلته صاحبات العبايات مع العاملين في المحلات، بأنه ليس هناك من حامٍ في تلك الشوارع. فالبقاء فيها هو للأقوى فقط.

كان سعال الشاب جافاً، مؤذياً للسمع، وتأرجحت الحرارة بين الحادة جداً والحادة. ولمّا كان علي مرعوباً من العدوى، فإنه لم يحاول أن يقترب من الشاب ليفهم همهمته. كان يحدثه بما يدور في دماغه، مدركاً أنه لا يسمعه، لكنها الوسيلة الوحيدة لتمضية الوقت. في الأخير قرر علي أن يفتح النافذة في محاولة لتبديل هواء الغرفة المليء بسعال المريض وبأنفاسه، وبما أن البرد في الخارج وحشي ولا يحتاج الى دعوة لدخول الغرف، كان قرار فتح النافذة مغامرة قد تكون عواقبها أن يصاب علي بنزلة برد. لكن قلق العدوى الذي سيطر على وعيه منعه من احتساب هذه الاحتمالية. التَحَفَ علي بطانيته وتنشق الهواء البارد لخمس دقائق قبل أن يبدأ الارتعاش فيغلق النافذة بسرعة. فكر باطمئنان بأن هذه النسمات الثلجية ستكون كفيلة بقتل الفايروس الرابض في زوايا الغرفة.

في الصباح، دار علي بالمريض في أرجاء المستشفى الحكومي. كان الناس يفترشون العنابر والممرات، أطفال يصرخون، عجائز يتقيأن في الأكياس البلاستيكية، نساء يحاولن السيطرة على "البراقع" مثبتة في أماكنها حتى لا تكشف عن زوايا الذقن، بينما يتمخطن بصوت عالٍ وتدمع أعينهن. يرتفع صراخ الممرضين والأطباء عالياً فوق صراخ المرضى وأنينهم. كان علي قد جال بالمريض الواهن على كل الأقسام، توسل الممرضات والممرضين أن يدلوه عن مكان يمكنه فيه رمي هذا الشاب المنهك بالحمى والسعال، لكنه قوبل بنفس الصراخ: لقد امتلأ المستشفى بمرضى إنفلونزا الخنازير ولم تعد هناك أسرة لاستقبال مريض إضافي. لم يستنكر علي الموقف أو يقابله بالرفض، كان هناك رجال ونساء آخرون يطلبون ما كان يطلب. تعالت الصرخات المرعوبة مطالبة بتعيين مكان يمكنهم الذهاب إليه. إحدى النساء انهارت في الممر قائلة أنها للتو قدمت من المستشفى الحكومي الآخر وأخبروها أن لا سعة هناك لاستقبال مرضى، وأنه من الأجدر بها القدوم لهذه المستشفى، انتحبت ملصقة وجهها بوجه ابنتها النائمة، زعقت فيها الممرضة بأنها ستصاب بالعدوى، شتمتها المرأة الباكية، وعادت لتثبت لثامها المنزلق. تمتم رجل خمسيني هادئ بصحبة فتاة شابة: جميل، رائع، إنه الوضع الأمثل، إنها البلد الأفضل. ثم فجأة تحول للصراخ بشكل هستيري: أتمنى أن نموت جميعاً، فلا يبقى في هذا البلد أحد، أتمنى أن تفترسنا إنفلونزا الخنازير وحمى الضنك والكوليرا والملاريا، أتمنى أن يقصفونا ليل نهار، أتمنى ألا نجد من يقبرنا فتأكلنا الكلاب! علق علي بهدوء: إنها ليست أمنيتك لوحدك.. لقد أصبحت حلماً وطنيا، وصدقني لن يتحقق هذا الحلم طالما أن الجميع متفق عليه!

قبل أعوام، اكتظت المستشفيات بمرضى الكوليرا، كان الإسهال مع الجوع يشكلان أقبح منظر يمكن للإنسان أن يراه. جثث حية بعيون غائرة مخيفة، جلد على عظم لأناس يستلقون في المستشفيات أو يزحفون في الشوارع، وفي هذه المستشفى استلقى علي ذات مرة، آنذاك كان الوضع معكوساً، إذ جال به هذا الشاب الأماكن حتى أسكنه أحد الأسرة التي كانت لشخص

مات في التو واللحظة. وبعد عام كان أحد أصدقائهم في المستشفى نفسه بسبب حمى الضنك، ثم ها هم اليوم يجوبون الأرجاء بإنلفونزا الخنازير. فكر علي بما سماه "المهزلة البشرية": لماذا يكافح كل هؤلاء الناس للبقاء؟ ما المميز في هذه الحياة؟ ما الذي يعتقده هؤلاء البشر؟ أن كل شيء سيكون رائعاً في الغد؟ أجابت ذات مرة سلمى على تساؤلاته، بأن كل شخص لا يريد الحياة لنفسه بالضرورة، لكنه يريدها لمن يحب، وسيعيش لأجل من يحب، وهكذا ينتهي الجميع بكفاح مستمر من أجل الحياة - الآخر. ما زال علي يفنّد هذه النظرية، إذ بعد عام من الآن ستمتلئ هذه المستشفى بوباء جديد، وسيتعالى الصراخ في الممرات بالطريقة نفسها، ولن تتحدث عن ذلك نشرات الأخبار إلا بعد أن يتجاوز عدد الضحايا الآلاف، أو أن يقبض على مسافر في المطار، وتكون تهمته أنه آت من بلد الأوبئة والجوع والقتل والعساكر الذين لا يرتدون البيادات (الأحذية العسكرية) لا صيفاً ولا شتاء. اختنق علي بالمرارة والغضب، وزحف بالمريض يسنده على كتفه ويتنفس أبخرته. خارج المستشفى كانت هناك بقايا نافورة، وحولها استلقت مجموعة من المراهقين يرتدون زي الطلبة كاكي اللون. انقبض قلب علي: هنا ستقف مدارس كاملة من البنين والبنات، وهنا سيقف كل أهاليهم، ولن يسند أحدهم الآخر، سيكون الأوان قد فات لأن تعير أحدهم كتفاً.

استفسر علي من المريض إن كان لا يزال يستطيع الصمود ساعة أخرى في الحافلات، رفع الشاب عينين منهكتين، لم يقل شيئاً. تفقد علي جيبه، ثم تقدم نحو الشارع في محاولة لاصطياد سائق سيارة أجرة ما زال بإمكانه التعاطف. لم يكن الأول ولا الثاني، استسلم الثالث لابتزاز علي باسم المرض والإنسانية، دار بهما في الشوارع. كان علي قد غيّر خطته وقرر الالتجاء إلى أبعد مستشفى حكومي علّ وعسى أن يجدوا سريراً متاحاً.

في الطريق، حدّث علي - بطريقته الحكواتية - السائق عن هول ما شاهده بالأمس كي يمعن في ابتزازه:
في تلة القمامة، رأيت يده الصغيرة تتدلى - يكذب علي - وحين اقتربت، أزحت أكياس القمامة، وآه لو لم أفعل! طفل يا صاحبي، صبي ربما في الصف الخامس الابتدائي، مشنوق ومعذب، صدقني، مهما حاولت الوصف لن أستطيع. شيء لا تصدقه العين، هذا العالم أصبح متوحشاً يا صاحبي، لا يمكن إلا لوحش أن يفعل فعلته تلك، أنا لم أستطع لمس الجثة، لكن المارة الذين كانوا بالجوار، شهدوا أن الصبي كان قد أُغتصب ثم قُتل. وأنت تعرف كم مرة حدث هذا مؤخراً، لن أنجب أولاداً، لماذا ننجب؟ كي يموتوا بالكوليرا أو بإنفلونزا الخنازير؟ أو كي يختطفهم معتوه في الشارع ليغتصبهم؟ أخبرني أنت؟

- في حارتنا فقط قُتل صبيان اثنان بعد اغتصابهما. كانت تلك الجملة الوحيدة التي شارك بها السائق.

تقبّل علي صمت السائق، وارتاح لذلك الوضع الغريب الذي يتحدث فيه الراكب ويسكت السائق، كان المريض يستلقي في الخلف وما انفَكَ يئن بسبب الحمى، نظر إليه علي مطولاً وأحس بالتعب. كان متعباً من المرارة وقلة الحيلة، ومتعباً لأنه لم ينم، ومتعباً لأنه لا يعرف ما الذي سيحدث، ومتعباً لأنه يعرف ما الذي سيحدث إن مات الشاب.

توقفت السيارة في الزحام، وعلى الرصيف المقابل، مر جسد ممشوق تحت العباءة، احتوى الخصر خيطاً ذهبياً يتحدى سوادها، رفرفت رموش طويلة أثقلتها "الماسكارا"، وبلا مبالاة نظرت لعلي وأصلحت "برقعها". ابتسم لها علي قائلاً: انتبهي أن يحرقوك يا جميلة، إنهم لا يحبون الخصر الواضح والجميل!

في حضرة الحقائق

في الصباح، قررت سلمى أن تكتب كل توقعاتها وهواجسها بشأن لقائها بعلي، واختارت أن يكون ذلك بخط يدها. استرخت وفكرت. لم يكن هناك سوى القلق، لذا كتبت: "مهما سيكون الأمر سيئاً، فإنه لن يكون أسوأ مما كان". أغلقت دفترها القديم، وخبأته بين ثيابها، واستعدت لعمل المطبخ. كانت ساهية، لكن لأسباب عدة. ففي أيام كتلك، ومكان كذاك، يستحيل أن يحتفظ المرء بأفكاره لحيزه الشخصي. قبل دخولها المطبخ، قرأت على الفيسبوك أن هناك شجاراًنشب بين أخوين، استخدما فيه الأسلحة، وبينما يتشاجر الإخوة بسلاحهم، كانت هناك عائلة صغيرة تمر بسيارتها في الشارع، طارت رصاصة، ووجدت هدفها في رأس الزوج، صرخت الزوجة والابنة وظلتا تصرخان. واستمر الشجار بينما تصرخان. وانشغل الناس في الشارع بتصوير صراخ الطفلة وأمها، والدماء المتدفقة من رأس الرجل الذي أخذ على حين غفلة. لم يقم أحد بإسعاف الرجل. سبَقُ التصوير، ونشوة نشر الحدث على مواقع التواصل الاجتماعي تصبح أكثر جدوى من إسعاف رجل يعلم الجميع أنه قد مات، أو سيموت طالما أن الرصاصة قد اخترقت رأسه. تدفقت أسئلة الناس على فيسبوك متسائلة ببراءة: ما الذي حدث للإنسانية في بلدنا؟ تجمعت كتلة الاحتقار والكراهية في حلق سلمى.

حكت سلمى الحكاية الحزينة لأمها، لا لتجعلها تبكي كما فعلت، بل لتحس بالمشاركة، ولتعرف أن العالم في الخارج لديه أحزانه تماماً كما أحزانها هي وعائلتها، وأن عبث الموت لم يعد يفرّق بين فئات المجتمع. وبينما تحدث أمها، كانت هناك فكرة واحدة تلح عليها: من المحتمل جداً أن تموت خلال لقائها بعلي، رصاصة طائشة، شظية صاروخ، سيارة مسلحين تدهسها، أو مجموعة مجرمين تختطفها.. ليس هذا ما يقلقها، بل هو أنها كذبت بشأن خروجها الليلة، حيث شرحت لأمها أنها ذاهبة لتقابل صديقة قديمة من أيام الثانوية في منزل صديقة أخرى مشتركة. كان صعباً عليها التراجع الآن، وصعب عليها أولاً أن تضع أمها تحت طائلة مسؤولية الشرح للأب في حال قُتلت الليلة، وثانياً أن تقتل فرحة أمها التي اعتقدت أن ابنتها أخيراً لديها صديقات من "المجتمع العادي"، وتستطيع أن تعيش حياتها

الاجتماعية بشكل طبيعي غير حبيسة جلدها الداكن، ولا انتماء أمها لمخيمات حواف المدينة. رست غيمة من الكآبة في صدر سلمى، وقررت أخيراً عدم إخبار أمها بالحقيقة.

في طريقها إليه، توقفت الحافلة قرابة الساعة الكاملة في اختناقات مرورية سببها خطوطٌ لا تنتهي من السيارات المنتظرة دورها في محطات البنزين. علّق رجل في الحافلة أن قريباً له نام لثلاث ليال في السيارة بانتظار دوره، وأردف سائق الباص أن ابنه يفعل الشيء نفسه باستمرار على أمل الحصول على كمية بنزين تكفي لتشغيل الحافلة. كانت سلمى بانتظار أن يرمي المتحدثون المسؤولية على أحدهم، لكن أيّاً منهم لم يعلق على الموضوع، بل استمر الجميع في تبادل الأمثلة حول أناسٍ يقضون الليالي بانتظار دورهم، وآخرين تعرضوا للابتزاز والسرقة، وكثيرين استسلموا في اللحظات الأخيرة، وغادروا المحطات لا يلوون على شي. وفي المحادثة التي اشترك فيها الجميع، علقت امرأة تجلس في الكرسي قبل الأخير، قائلة أنهم ربما لم يشاهدوا صفوف النساء أمام محلات بيع اسطوانات الغاز، وأقسمت بأنها أصبحت تطبخ مرة واحدة في اليوم كي توفر غاز الطبخ، ولا تمر بأزمة جيرانها الذين اضطروا للسفر إلى القرية حيث سيكون بإمكانهم على الأقل استخدام الأحطاب بِحرّية. سألها رجل عن ما المانع من العودة إلى القرية، ردت عليه بجفاء أن ليس الجميع لديهم قرى في انتظارهم. استمرت سلمى في صمتها، كان علي قد طمأنها بأنه أيضاً عالق في زحام مشابه، وأن لا مشكلة إنْ تأخرت.

أمام بوابة المقهى السوداء الكبيرة، توقفت لثوان. تنفست وذكّرت نفسها أن لا شيء أسوأ مما هو عليه الآن وما كان عليه سابقاً. خطت إلى الداخل، كانت المرة الأولى التي تدخل أماكنَ كهذه، لكنها سمعت الكثير عنها. في الهواء الطلق، ورغم الجو البارد، انتشرت الطاولات الزجاجية، وحولها تجمع شبابٌ من كل الأعمار، من الجنسين. وكفتاة تشاهد هذا المنظر لأول مرة ارتعد قلبها بشعور غريب. كان الجميع متأنقون، والفتيات جميلات صافيات البشرة، يرتدين حجابات زاهية تنحدر من تحتها خصلات شعر ناعمة، وعباياتهن ملونة وقصيرة، يلوحن بكفوف غضة ناعمة، يرتشفن مشروباتهن برقة وتصنع. لم يكنّ يشبههنَّ بشيء عالمُ سلمى المنهك الكالح، حيث شجرة الأوردة ترتسم واضحة على كفوف النساء، والوجوه غبراء لامعة بدهون المطابخ والتعب، يرتدين السواد ويغطين رؤوسهن حتى في المنازل، والرجال يرفلون في ملابسهم المتسخة، ورائحة العرق لا تفارقهم. وفوراً أدركت سلمى أنها خسرت، وستخسر دوماً في مواجهة هذا العالم، وبنفس القوة التي أحست بها أنها أبعد ما تكون عن هذا العالم، أحست تجاهه بالكراهية المطلقة. وعوضاً عن الشعور بالنقص، تأججت بتعالي الأنا التي تسحق ما حولها بنظرة الازدراء. مسحت المكان بحثاً عن علي، لكنها لم تجد شاباً يجلس لوحده. أخرجت هاتفها، وبعثت له رسالة قصيرة تخبره أنها لا تجده في المكان.

قريباً منها، كان حارس المكان ينظر إليها بريبة. ومن رأسها بعينيها اللتين تفيضان عدوانية

مـن تحـت اللثـام، حتـى قدميهـا، تفحصهـا الرجـل وخمّـن هويتهـا، وفكـر أنهـا إثيوبيـة تلبـس اللثـام، اقـترب منهـا، وسـألها بلهجـة غريبـة عـن مـاذا تبحـث، كان يقلـد لهجـة الصوماليـين المقيمـين في البلـد. بالطبـع عرفـت مـا الـذي يقصـده، فـردت عليـه بجفـاء أن أحدهـم قـادم إليهـا، وتقدمـت للأمـام خطوتـين دون أن تنتظـر رده. ومـن بـاب قريـب أطـل شـاب ضئيـل الحجـم، يرتـدي جاكيتـاً شـتوياً أكـبر قليـلاً مـن مقاسـه، ويبـدو هـو الآخـر تائهـاً، ولا ينتمـي إلى العـالم مـن حولـه. ذو وجـه لطيـف وعينـان غائرتـان. اسـتغرق الأمـر وهلـة لتـدرك أنـه هـو، كان متقدمـاً بابتسـامة بلهـاء، يبحـث هـو الآخـر عنهـا، مـرّ بـصره عليهـا لكنـه تجاهلهـا وعـاد ليبحـث مـن جديـد. مـر بجانبهـا واتجـه يسـاراً ليواصـل البحـث. فكـرت سـلمى بـأن تـترك المـكان وتمـضي للأبـد، لكنهـا لم تسـتطع منـع نفسـها مـن إنهـاء الحكايـة، فهتفـت بصـوت مبحـوح: عـلي!

لا شيء يقـال، ارتعـش عـلي حـين أزاحـت سـلمى لثامهـا، وسـألته بـبرود إن كان متفاجئـاً، كانـت تتحـدث بعدوانيـة بشـكل لم يفهمـه هـو، أمـا هـي فكانـت تقـاوم البـكاء رغـم تصلبهـا وبرودهـا، قالـت لـه دون أن تفكـر:

- لا تجهـد عقلـك، نعـم أنـا "خادمـة"(١) ،بالأصـح نصـف خادمـة مـن جهـة أمـي، أردت أن أفاجئـك بالحقيقـة بينـما أشـاهد ردة فعلـك وجهـاً لوجـه.

تلعثـم عـلي. إننـا نؤمـن بـكل مـا هـو خـيّر وعـادل، لكننـا لحظـة مواجهـة ذواتنـا لهـذه الحقائـق، نصبـح مجـرد بشرعاديـين أنانيـين وتافهـين. حـاول عـلي أن يقـول شـيئاً جميـلاً، أي شيء يمكنـه أن يبـدّل ذلـك الجـو المزعـج والـكابي. قـال نكتـة غـير مضحكـة، ثـم سـألها إن كانـت تفضـل شـايا أم قهـوة، طلبـت شـايا مخافـة ألا تسـتطيع التعامـل بنفـس التصنـع مـع كـوب القهـوة. وبينـما يتحـرك عـلي بعيـداً، تعالـت شـهقات مـن الفتيـات الجالسـات خلـف سـلمى، اسـتدارت لتتفاجـأ بمجموعـة مـن الرجـال المسـلحين يقتحمـون المـكان حاملـين أسـلحتهم ووجناتهـم منتفخـة بالقـات، تجمـدت سـلمى:

" يسـتطيع دائمـاً أن يكـون أسـوأ مـما كان"، أكـدت لنفسـها باستسـلام، ثـم بكـت متوسـلة "يـا اللـه! إن نجـوت مـن هـذه الليلـة أعـدك بـألا أتذمـر أبـداً، وألا أنكـر عليـك عدلـك وحكمتـك!". لم تكـن تفكربالمـوت ذاتـه، بقـدر مـا كنـت خائفـة مـن غضـب وخيبـة أمـل والديهـا حـين يكتشـفون كذبهـا. انتـشر الرجـال بسرعـةٍ في أرجـاء المـكان، مفرغـين الطـاولات مـن الجالسـين عليهـا، موزعـين عـلى الجميـع وبالأخـص الفتيـات تهـم الفسـاد الأخلاقـي، متوعديـن أن هـذه الرذيلـة سرعـان مـا سـتنتهي عـلى أيديهـم. حـاول شـاب ذو شـعر كثيـف أن يجـادل فتلقـى صفعـة عـلى وجهـه ثـم ضربـة بكعـب البندقيـة عـلى بطنـه، تقافـزت فتيـاتٌ هنـا وهنـاك، كان عـلي يحـاول الوصـول لسـلمى

حـين قطـع طريقـه أحـد المسـلحين. ظلـت سـلمى واقفـة في مكانهـا مبتعـدة عـن الطاولـة بمقـدار خطوتـين. عـبر بجانبهـا مسـلحٌ ملقيـاً عليهـا نصيحـة:

- "اعمـلي في مـكان آخـر غـير هـذا المـكان الفاجـر، اشـتغلي خدامـة في منـزل أشرف لـك، لكـن أمثالـك لا يعرفـون الـشرف عـلى أيّ حـال".

سـحبت سـاقيها، ودون أن تنتظـر عـلي أو تلتفـت إليـه، غـادرت سـلمى المـكان، لم يعرهـا أحـدٌ أي اهتـمام، لم تتلّـقَ أيّـة شـتيمة كالفتيـات الأخريـات. كانـت نكـرة، غـيرَ مرئيـة بالنسـبة لهـم، ولا تسـتحق حتـى الوعـظ أو التهديـد.

١- "الاخـدام" كانـت تطلـق عـلى فئـة مـن اليمنيـين مـن أصحـاب البـشرة الداكنـة. وهـم لا ينتمـون الى قبائـل اليمـن، ولا يختلطـون في اماكـن السـكن بسـائر المواطنـين ولا يتزاوجـون معهـم. وهنـاك افتراضـات عديـدة تتعلـق باصولهـم. وهـم فئـة منبـوذة وفقـيرة، تتـولى الاعـمال التـي يأنـف منهـا الاخـرون.

أشياءُ لا تُحكى

انعكس على القمريات الملونة ضوء سيارة مارّة في الشارع. جلست نادية بسلام على "المجلس العربي" بألوانه الكحلية والفضية. أمرها الأب بأن تنتظره في الديوان، وهي تعرف لماذا. كان الأخ قد شهِد أنه رآها بأم عينيه تغادر صحبة شباب وشابات من مقهى مختلط. سبقها الفتى موصلاً الشهادة بانفعال وغضب، صارخاً بأنه سيقتلها. كان الأب موجوداً، لذا فقد نقلت إليه المسؤولية حالاً. لم يكن الفارق الزمني بين وصولها ووصول الأخ كبيراً، ربع ساعة على الأكثر. وحين أطلت برأسها من الباب، غمزت لها الأخت التي تليها محذرة إياها. تأهبت حواسها، وشاهدت أمها مرتبكة، محمّرة الوجه، تغطيه بمساحيقها الرخيصة، وترتدي "درعاً" براقاً. وقبل أن تخلع نادية عبائتها أو تتجه لغرفة الفتيات، أمرها الأب بصوت هادر بأن تنتظره في الديوان. واصل الأخ المدلل صراخه وصياغة شهادته بأكثر الألفاظ استفزازاً لغضب الأب. توجهت نادية إلى الديوان بشيء من الخوف، لكنها في عقلها بصقت باستهتار: ما الذي سيفعلونه؟

حين دلف الأب إلى الديوان، أقفل الباب وراءه. نهضت هي لا-إراديا وواجهته. وفي اللحظة التي تقدم فيها إليها، أدركت نادية كم هي لا تحب أحداً في هذا العالم، لا تحبه ولا تحب أمها بتبعيتها الكاملة له، وكم تمقت أخواتها بطاعتهن وتزلفهن. سألها الأب: هل كنت هناك فعلاً؟ فكرت لوهلة أنه لا داعي لأن تكذب في هذا السؤال، ستكذب لاحقاً، قالت ببرود: نعم. تلقت الصفعة الأولى بصدمة حقيقية. أساءت التقدير. انتفض جسدها متراجعاً للوراء، وأحست باهتزاز جمجتمها.

تدافعت أسئلة وتهديدات من فم الأب، لم ترد هي بإجابات ولا بشروح. كان ملخص المحاكمة أنها فاسقة كاذبة بائرة لن تتزوج أبداً، وأنها لن تخرج من البيت بعد الآن. كان الأب يكرر مندهشاً غير مصدق، أنْ كيف لفتاة عاقلة أن تذهب لمقهى! ومختلط! ولم يستطع حتى تخيل ما الذي يمكن أن يكون عليه هذا "الكافيه" الذي يتحدثون عنه. أحست نادية بصدق

اندهاشه، وابتسمت باحتقار.

المحاكمة التالية كانت بمواجهة الأم، التي تخلصت من قاتها، وأجلست ابنتها الوسطى أمامها على السرير. شرحت لها المرأة بمرارة كيف وهبتها الثقة وصدّقتها أنها برفقة وداد في المنزل. سألتها كم مرة ذهبت لهذا المكان، وكيف تجرأت على فعل هذا بنفسها وأخواتها البريئات، من الذي سيتزوجهن الآن؟ ماذا لو أن الجيران أيضا صدف وشاهدوها برفقة شباب ذكور أو تلك الفتيات المتبرجات؟ بكت الأم من هول تخيلاتها. ظلت نادية صامتة تنتظر نهاية الحلقة الكئيبة، لكن الأم استرسلت في خيالاتها وعتابها، ثم فجأة قفزت من الكائن المجني عليه لتتحول للشخص الذي تعرفه نادية، قالت لها بحزم أنها لن تسمح لها بتدمير مستقبل أخواتها إن كانت هي تريد تدمير نفسها، وأنه، إن كان سبب زيارتها لهذه الأماكن هو أن يمسك بيدها رجل ما، فلتتأكد أولاً إن كان هذا الرجل زوجها. أخيرا قالت لها: لست أنت من سيحط من قدري أو قدر ما صنعته في هذا البيت. لم تفهم نادية التهديد الأخير، لكن قوة المباهاة والغلو فيه لسعتها، وهذا ما جعلها تقفز من حالة اللامبالاة إلى حالة الهجوم. قالت للأم: هذا يعني أنه عادي جداً وأنكم تفضلون أن أكون في منزل وداد أو أي منزل آخر وأنتم لا تعرفون مع من أو ماذا أفعل. تفضّلون ذلك على أن أكون في مكان عام، الجميع فيه يشاهدني ولن أتجرأ على ارتكاب خطأ؟

مرة أخرى، أساءت التقدير. صفعتها الأم قائلة: المكان العام بكله خطيئة.
ليس تلقي الصفعات مرعباً. كل الفتيات يتحدثن عن هذا. فتيات بأعين متورمة وأسنان مفقودة. فكرت نادية: لست الوحيدة في هذا. تذكرت حنان التي اختفت للأبد حين صادفت أخاها في إحدى عصريات القات على الجبل المطل على المدينة، وإحسان التي ظلت تبعث لهن برسائل مشفرة من هواتف إخوتها الأصغر. هناك أمل بأن يكون مصيرها أخف وطأة. والمهم هو إنتهاء المحاكمة. أرادت أن تخلو بنفسها، وجهّزت هجومها على أخواتها في حال سألنها شيئاً. وكان الشيء الوحيد الذي ينخر أفكارها، هو إحساسها بالكراهية المطلقة تجاه أخيها. ظلت في فراشها متجنبة الحديث، ومنتظرة نوم الجميع كي تذهب للحمام وتغسل نار الصفعات بماء بارد. وحين توقفت الأضواء عن الانعكاس على قمرية الباب، وهمدت الأصوات، تحركت نادية باتجاه الحمام مستخدمة هاتفها لتضيء الطريق. لم يكن لديها من ستشكو إليه ما حدث لها، لكن كان لديها الكثير ممن تتحدث إليهم عن كل تفاهة ممكنة. وفي تلك الليلة، أحست أنها تحتاج لهذه الأحاديث التافهة بشكل ملح. عبرت الصالة باتجاه الحمام منشغلة بالرد على الرسائل، ومن حيث لم تحتسب، انقض عليها الأخ المدلل خاطفاً الهاتف من يدها ثم دافعاً إياها بقوة.

للمرة الثالثة: مفاجأة! وألم..

على الطريق الى الريحان

في المفاضلة بين سيارة البيجو وحافلة النقل الجماعي، قرر علي أن يستقل حافلة النقل الجماعي، حيث ربما تكون الرحلة أكثر أماناً وإنْ كانت أطول. لم يكن هذا السبب الوحيد، فسيارات البيجو تذكّره بمنظر العجوز الذي أتى باحثاً عن حفيده الضائع، لم ينس علي وجهه العاجز حين استقل سيارة البيجو البيضاء دون أن يودعه أو يشكره على الاستضافة. مشى علي في الشوارع هائماً كما يفعل في العادة، حتى وجد مكتباً يشتري فيه تذاكر السفر لحافلات النقل الجماعي، سأله الرجل إن كانت لديه عائلة، فذلك سيسهل عملية عبوره نقاط التفتيش على مر الطريق، أخبره علي أن لا عائلة، ويبدو أنها لن تكون.

لايمكنك خداع نفسك، يفكر علي بعد لقاءه بسلمى. كتب لها شيئاً سخيفاً ليرى ردة فعلها، لم يعاتبها لأنها تركته في المقهى لحظة الاقتحام، لم يكتب شيئاً عن سعادته بلقاءها أو متى سيلقاها لاحقاً، اشتاق حتى الألم للحظات التي كانت فيها سلمى مجرد اسم على الهاتف، تملأ حياته بالثواني. لم يشعر بالخديعة لأنها لم تخبره، شعر بالألم لأنها كانت «كذلك»، لم يبح لنفسه حتى ماذا كانت «كذلك» تعني، وحين واجه نفسه بالسؤال إن كان سبب تشككه هو شكلها أم نسبها، لم يستطع الإجابة. تذكر أمه وهي تحكي قصة أحد شبان القرية الذي عاد قبل سنين عديدة إلى القرية وبرفقته زوجته «الخادمة»، قالت له أنهم لم يكونوا يعلمون أن أهله قد تبرأوا منه، وأنه حين عاد أصاب الجميع بالصدمة. فحتى لو كنا فقراء لا يمكن أن ننزل بمستوانا للحضيض ولا أن نتسبب في معاناة أولادنا الذين حتما سينبذهم العالم.

في الطريق، ولأربعة عشر ساعة، أحصى علي صحبة رجل آخر يجلس في الخلف، عدد النقاط التي توقفوا فيها: خمسة وخمسون نقطة تفتيش، تغيرت فيها الأعلام، ملابس الرجال، الشعارات المرفوعة، و اللهجات. لكن لم تتغير لا الأسئلة ولا طريقة المعاملة. بعد كل نقطة تفتيش، كان الرجل في الخلف الذي يمضغ قاته منذ الصباح، يصرخ بالرقم، فيؤكد عليه بقية الركاب. فُتِّشت الحافلة عشرين مرة، وأظهر علي بطاقة هويته ثمانية عشر مرة، وأجاب

لم تتأكد مما إذا كان كامناً بانتظارها، أو أنه تصادف ذهابه أيضاً إلى الحمام. كانت بالفعل تكرهه. وليسفقط منذ الليلة، لكن منذ البداية، وما فعله كان أقوى بكثير من كل لا- مبالاتها واستخفافها. صرخت بجنون ثم انقضت عليه. اشتبك الاثنان في صراع غير متكافئ، لم ينته إلا حين انتزع الأب الفتى بيد واحدة ورماه بعيداً. لكن الهاتف ظل في قبضته، شتمها الأخ واصفاً إياها بالإنحلال، وأن السبب هو الهاتف ومراسلاتها غير المتناهية. أحس الأب بالخزي: كيف غاب هذا عن ذهنه؟ ظلت نادية تردد جملة واحدة: أعد إليّ هاتفي، لكن الأب دفعها بعيداً طالباً منها أن تذهب لتنام.

سال خيط صغير من الدم على وجنتها، وخيط أكبر على قلبها.

تقدم الأب، ناوله الفتى المنتصر الهاتف، وأخبره بوضوح أنه يحتاج لأن يرى ما في الداخل، ثم توجه بالحديث لنادية: أزيلي كلمة المرور!

الغصة التي كانت تجمعت في حلقها حين دفعها الأب بعيداً وذهب ليقف محيياً جهود الفتى المتعجرف، استُبدلت بغضب مشتعل، وقررت أنه حتى لو سلخوا جلدها، فلن تعطيهم كلمة المرور.

على أسئلة الجنود والمسلحين باللهجة الهادئة الصادقة ذاتها، احتفظ بمناظر الطريق وبأرقام النقاط وقرر أنه سيكتب عنها بلغته الركيكة، ولم ينس أن يكتب رسالة لسلمى يبلّغها بأنه مسافر. وعلى الرغم أنه كان غريباً عليه أن يسافر في غير وقت العيد، ادّعى علي كذباً أن أمه مريضة.

كان هو المريض بالاختناق وغضب التناقضات.

تهادت الحافلة، أصوات نساء وأطفال يتقيأون أحياناً ويتحدثون أحايين، تختلط بصوت أبو بكر سالم الذي رافقهم طوال الرحلة تقريباً. كانت الحرب في كل مكان، في البيوت المهدمة، في جوع الناس، في الشعارات، في صور الفتية الشهداء على الجدارن، وعلى طرفي الحدود الوهمية. كان الجميع شهداء، القاتل والمقتول، الغازي والمدافع. والحرب لا تترك حتى الهواء، روائح البارود والموت والشك الغريب، كلها تظلل المدن والقرى. استغرب علي ما الذي يجعل من الطريق الملتوية هدفاً لطائرة؟ كانوا ينزلقون في الطرق متفادين الحفر والمطبات، وتعْبر الحافلة طرقات ضيقة لتجنب الطرق التي دمرت بالكامل، إما بسبب قصف الطيران أو بسبب قصف المدفعيات.

فكر علي أن الطائرات قصفت كل شي: صالات الأفراح والمجمعات السكنية، الأسواق وحافلات الأطفال العائدين من المدارس، قصفت الطرقات، لكنها دوماً أغفلت قوافل المدرعات والدبابات التي تجوب البلاد. أكذوبة كبرى أشد مرارة من أكذوبة سلمى ولون بشرتها.

في منتصف الطريق، حطت الحافلة رحالها، بعد رحلة طويلة من الأعلى، حيث الطريق هي الأخطر على الإطلاق. قيل للركاب أنه وقت الغداء. كانت الطبيعة على جانبي الطريق أجمل ما تكون: بساط أخضر وهواء عليل، وسماء لم تعبرها المقاتلات ذلك النهار، أشجار التين الشوكي طرحت ثمارها ببذخ على جانبي الطرقات، الأبقار تتنزه بوداعة مع رعاتها، والجبال على مرمى البصر تكتلات خضراء تحيط بقممها دوائر الضباب الكثيف.كانت المدرجات الزراعية تمتد من الأودية حتى صدور الجبال، السنابل لم تعلن عن نفسها بعد، لكن ولادتها باتت وشيكة.. وعلى حواف المدرّجات، تسلقت الشجيرات وغطت جدرانها، وفي الأودية بنت العصافير أعشاشها بكثافة على أشجار السدر الشوكية. ترجل الجميع من الحافلة إلا فتاتين كانتا تسافران وحيدتين.

استنشق على هواء المدينة. أكثر من حافلة رست في الموقع، وثلاثة مطاعم كبيرة بانتظار هجوم المسافرين وقت الغداء، كانت تلك بؤرة للمتسولين وبائعي الأشياء الصغيرة: كتب

الأدعية، الحناء وملصقاتها البلاستيكية، قبعات خزفية، «دروع قطنية». لم يهتم بائعي الأشياء بعلي، كانت النساء هن أهدافهم. علي هو الهدف الأمثل للصبية المتسولين. تقدمت نحوه فتاة بلون قهوة « القشر»، عيناها سوداوين فاحمتين، ارتعد علي. كانتا عينا سلمى قبل أن تزيح نقابها، وكانتا أول ما ارتجف له قلبه قبل أن تتحول تلك الارتجافة إلى وخز حالما نزعت نقابها. ابتسمت الفتاة قبل أن تبدأ الحديث. في تلك اللحظة فقط أدرك أن سلمى لم تبتسم قط خلال لقاءهم، لم يلم علي نفسه، أزاح الفكرة بعد أن نفح الصبية مئة ريال ثم فرّ من هجوم الصبية الآخرين.

لم يذهب علي للغداء، اعتاد أن يأكل أقل، «أحد سبعة ملايين جائع» يذّكر نفسه. تجول حول منطقة الحافلات تلك، استمع لثلاثة رجال يناقشون حالة الطقس ويحلمون بالاكتفاء الذاتي حيث لا يهم إن أُغلق أو قُصف الميناء. وحين عاد إلى الحافلة وجد الفتاتين مازالتا على حالهما، كانتا أمامه بالضبط، لذ فقد كان محرجاً له أنه حين عاد الآخرون من الخارج كلٌ يحمل شيئا للفتاتين: علب الماء والعصائر والشوكولاتة والكيك، حتى أن أحدهم ابتسم وهو يهديهن علبة «برنجلز»، كانت تلك تقاليد الرحلات، حيث إذا ما صادفت فتاة وحيدة، اجلب لها شيئاً بدون الكثير من الكلام. أغفل علي تلك النقطة، تضاءل قليلاً ثم نسيها وغط في النوم جائعاً.

في اليوم التالي، كان علي قد عبر الحدود الوهمية، نام ليله في لوكندة اعتاد النوم فيها، ثم استعد لرحلة القرية. لم يخبر أمه بعودته، استقل سيارة البيجو التي تهرَّب منها في الرحلة الأولى، كانت الطبيعة مختلفة هنا. هواء البحر الساخن الرطب والحر الخانق. اخترقت السيارة مناطق مزارع المانجو والموز، مزارع تقع بين البحر والصحراء، يجلس الناس في جوانب الطريق تحت أشجار النخيل، مشرفين على بسطات الفواكه والخضار. كان علي في رحلة الجبال قد لاحظ كيف انقض الناس على مشتريات البطاطا والعنب والرمان القادمة تواً من المزارع. في رحلة السهل، توقفت سيارة البيجو في عشر نقاط أمنية متتالية، ثم تدفقت مخترقة المزارع متجهة نحو الطريق الصحراوي، لاحت مقتربة كثبان الرمل وقوافل الجمال الهائمة. كان علي يحفظ تفاصيل هذه الطريق التي تربط قريته بأقرب مدينة على البحر، يعرف تماماً نقاط تجمع «ممالك النحل» و»منحّليها» المختبئين من جحيم الشمس تحت عرائش من سعف النخيل. لن يسمها أحد «مزارع نحل» إذ لا يتجاوز عددها خمسين صندوقاً للمنحّل الواحد.

في الطريق إلى داره، عبر علي الوادي متجهاً إلى الجبل حاملاً حقيبته الرياضية السوداء ومشتريات أخرى عاد بها لأمه وأخواته وأبناء إخوته. كان الوقت يوشك على الظهيرة، والنساء ينهين أعمالهن في المدرجات وعلى المنحدرات التي تعلوها. حيّت النسوة الكبيرات في السن علي،

وسألنه عن حياته وعن المدينة والحرب والسلام. لم تفعل ذلك الفتيات الشابات، اللواتي خبأن وجوههن تحت قبعاتهن الخزفية العريضة. بدت القرية كأنها عالم منفصل، هدوء وثبات أزلي، كدرت صفوه كثرة الجنازات مؤخراً. لكنها ظلت بثباتها الأزل.، في كل زيارة لعلي يكتشف أن هناك على الأقل خمسة مواليد جدد، وحفلات زفاف جديدة لمراهقين كان بالأمس فقط يحملهم على ذراعيه، والفتيات اللواتي وزع عليهن حلوى العيد في السنة الفائتة احتجبن واستعددن لرحلة الزواج، وأمه تعدّ أساميهن عليه علّه يوافق على الزواج ويلتحق بالركب.

خارت البقرة ونبح الكلب، تقافز الصبية، سمع نداء أمه السعيد. كان الدخان يتصاعد معلنا أن أمه تعد الخبز في التنور، لم يتغير شي ولن يتغير: حزم الحطب تجف في أماكنها، البقرة في موقعها الصيفي، بيت الدجاج الذي بناه، أسماء الأغنام، عريشة الحمار، أشجار «المريمر» الوارفة التي يجب أن تنمو بجانب البيوت، رائحة الروث، الكهول الذين على الرغم من الشمس يتجولون بأجهزة المذياع على السطوح، الفتية الذين يكبرون وهم يرتدون الملابس نفسها حتى تتمزق تماماً، الفتيات - حتى الصغيرات منهن - بأغطية الرأس الملونة، النساء بصدورهن المهتزة حيث لم يتعرفن بعد على حمالات الثدي. وفي جوانب البيوت وعلى السطوح محميات النعناع والريحان الذي تحطه النساء على رؤوسهن ليجمّل روائحهن. وعلى الرغم من الريحان، اشتم علي رائحة الخبز الطري في رأس أمه حين دس وجهه يقبلها، وتساءل أي رائحة يا ترى لشعر سلمى ولعنقها؟

بؤس الصفيح

تحاول سلمى ألا ترد على مكالمات الأب، لأنها لم تعرف بعد من أمها إن كان يجب عليها أن تخبره بالسبب وراء الزيارة المفاجئة لعائلة الأم في أطراف المدينة، أو أنها يجب أن تخترع كذبة ما. لذا فقد تجاهلت المكالمة الأولى والثانية، لكنها لن تستطيع تجاهل الثالثة، فحينها سيجنّ الرجل وسيصبح الوضع أسوأ. تأملت في أمها كيف توسطت قريباتها تحضن هذه وتعانق الأخرى وتقبّل رأس أمها، منتظرة أن يهدأ الحديث قليلا حتى تسألها.

كانت العائلة تسكن في أربعة أبنية منفصلة، يمر بينها طريق ترابي ضيق. المبنى الأخير في التجمع هو الأكبر، حيث تقيم الجدة واثنين من أبناءها مع نسائهم وأحفادهم. ثلاث غرف من الطوب الإسمنتي وغرفة إضافية من الصفيح ينام فيها الأولاد الأكبر سناً، ثم بين الغرفة والأخرى كانت هناك دوماً مساحة صغيرة مفتوحة، تستخدم كمخزن لكل الأشياء من أدوات التنظيف المستعملة في الشوارع وحتى الملابس. وهناك مطبخان بإسطوانة غاز وآلة طهي تتبادلها النساء بجانب مواقد الحطب، وحمام مبني من الطوب بابه ستارة قديمة حمراء، لكن أرضيته إسمنتية، على عكس بقية البيت الترابي. يعد هذا المنزل الرئيسي من أربعة منازل، وتعيش الخالات وخال إضافي بجانب البيت الرئيسي.البيوت الأخرى عبارة غرفة أو غرفتان من طوب إسمنتي بأبواب من خرق مهترئة، وأسطح من صفيح أو من خشب وتراب، تتجمع على كل الأسطح إطارات سيارات مثقوبة. لم تعرف سلمى كيف وصلت إلى السطوح ولا لماذا، وقطع أصغر من صفيح صدئ ربما بقايا غرف اندثرت، وأقمشة ممزقة، وبقايا أدوات معدن ربما يحتاجها أحد ما في يوم ما. وفي الممر الترابي، كان الأطفال القذرين يلهون كالعادة، غير عابئين بما حدث في الليلة الفائتة أو بما لم يعرفوا كنهه. ركزت سلمى في ابنة خالها البالغة من العمر اثنا عشر عاماً، كانت غريبة النظرة وغريبة الملاحظة، قالت الجدة أنها خبأتها لحظة أحست بالرجال يقتربون من المكان، قالت أن حدسها قادها لهذه التصرف، لم يهتم الكبار بإخفاء ما كان يجري عن الفتاة، ولم يلحظ أحد حتى وجودها.

بهلع وفضول ظلت أم سلمى تسأل عن تفاصيل ما جرى، كانت سلمى قالت لها أن هناك أخبار تتداول عبر الواتساب عن قيام مسلحين بغزوة ليلية لمساكن النازحين والمهمشين، أخرجوا فيها الرجال خارج المنازل ثم اغتصبوا أو تحرشوا بمن تبقى في الداخل، بالنساء اللواتي كن في المخيمات. ارتعبت الأم، صارت تهتز وتبكي، بينما بقيت سلمى على هدوئها، فقد أخذت وقتها لتفكر بالموضوع، ثم وصلت للنتيجة: بالطبع سيحدث هذا! ما الذي يمنع هذا من أن يحدث؟ على مر التاريخ، وفي كل مكان في العالم حدث هذا، وعلى مر التاريخ صنع الرجال الحروب ثم دفعت النساء ثمنها، سواء في الإنتصار أو في الهزيمة. وهنا، في هذا المجتمع البغيض، ستكون نساء على شاكلة سلمى وقبلها عائلة أمها هنّ أول من يدفع ثمن الحرب.

الجميع يتحدث، يعترض، يصرخ، يُكذّب الآخر، يواسي، يدعو، ثم هناك بكاء. زوجا خالتيها وأحد أخوالها كانوا أيضايشاركون قصصهم، يستمعون للنساء قليلاً ودوماً ما يعترضون، ينهونهن عن المواصلة ثم ينفجرون بالسباب و يركلون ما تصادفه أقدامهم، ويعودون لمزيد من التفاصيل. سلمى تجلس في زاوية على صفيحة سمن فارغة، تأكدت من أنها جافة بدون دهون حتى لا تتسخ عباءتها. كانت الغرفة بكل أشياءها مضيئة يعبرها الهواء، لكنها بدت لسلمى الغرفة الأتعس في العالم: البطانيات البالية والمتسخة، إسفنجات مهترئة كانت يوما فرش نوم، أدوات مطبخ، أحذية ممزقة، والكثير من الأشياء التي ما كانت أمها لتحتمل بقاءها في منزلها. لم تشارك سلمى العائلة حديثها وصراخها، تملكتها اللاجدوى من لحظة لقاء علي، وكونها وعدت الله أنها لن تتذمر ولن تشكو طالما نجّاها من تلك الليلة، لبست سلمى رداء الصمت واللاتعليق أيا كان، لكنها جمعت تفاصيل القصة في مخيلتها وتخيلتها بأسلوب علي الركيك والفج:

"سيارات لمسلحي قوات حفظ النظام في المدينة المنكوبة، يقتحمون في الليالي التي بدون كهرباء ولا قمر، مساكن ومخيمات النازحين والمهمشين، شهادات عن اقتياد الرجال بعيداً عن المساكن وإهانتهم وإذلالهم بحجة أن لا بطاقات هوية لديهم، التحرش وحالات إغتصاب للنساء اللائي كنّ مع أطفالهن في البيوت الرثة على حواف المدينة، تقول م. س. وهي امرأة في الثلاثين (تتخيل سلمى شهادة خالتها الصغرى): لقد طلب مني الرجل بطاقة هويتي، أخبرته أني لا أمتلك واحدة، وأننا منذ الأزل لم نمتلك بطاقات هوية، فقام الرجل بلمسي، وحين صرختُ صفعني وقال لي أنه سيمزق ملابسي إن صرخت مرة أخرة. وتقول تقول ه. م. (صوت زوجة خالها الأكبر الحاد) : لقد تقاذفني رجلان، كان كل منهم يرمي بي إلى أحضان الآخر. وعند السؤال عن حالات الإغتصاب، قال الشهود أنهن سمعن صراخ النسوة من مساكن مجاورة، وأنهن متأكدات أنهن تعرضن للإغتصاب لكن أحداً لم يتحدث علانية بعد، خوفاً من الفضيحة، وهو المتوقع والطبيعي في مجتمع مثل مجتمعنا".

شعرت سلمى بالإشمئزاز، وهي تتخيل مقابلات الصحفيين لخالاتها البسيطات، وهم بإصرار وقح يحاولون الوصول لأدق التفاصيل حتى يحصلوا على القصة التي تجذب القراء: وأين لمسك بالضبط يا عزيزتي؟ هل كنتن بملابس النوم حين اقتحم المسلحون منازلكم؟ هل تحرش المسلحون بالفتيات الصغيرات؟ بما أنك يا سيدتي لم تتعرضي للإغتصاب مثل جاراتك، هل تعتقدين أن هناك سبباً جعلك ناجية من هذه المأساة؟ كانت الفيديوهات العابرة للواتساب أكثر ما تكرهه سلمى، وأكثر ما يطلبه الناس ويسعى للحصول عليه. وتعرف سلمى أن خالاتها وأخوالها ما كانوا ليرفضون التحدث إلى أولئك التافهين، لأنهم وهم الذين لا يمتلكون بطاقات هوية مثل أي مواطن في أي بلد في الكون، سيتمكنون أخيراً من إثبات وجودهم –ولو لأمد قصير- في مقابلة مصورة بهاتف ذكي، مع أناس لا يعرفون عنهم شيئاً، وإن كانوا لا يعرفون أين ستنتهي تلك الفيديوهات التي لن تستخدم أبدا لإحقاق أي عدالة. وهذا بالضبط ما كانت تريد سلمى أن تحدثهم بشأنه، لكنها لا تستطيع إذلالهم أكثر: يا أخوالي وخالاتي الطيبين، كل هؤلاء الحمقى بهواتفهم الذكية لن يتذكرونكم بعد نشر فيديوهاتهم على وسائل التواصل الإجتماعي، أنتم أبعد بمدارات من أن يهتم أحدهم بكم، أنتم لا قيمة لكم في هذا العالم البائس، حتى لو اغتصبتم كل يوم، فالإغتصاب بالنسبة لهم جريمة شرف، وأنتم في المعيار الوطني بدون شرف ولا كرامة كما أنتم بلا وجود.

لن تقول سلمى ذلك أبداً، هي فقط تعيه بطريقة مؤلمة جداً.

للمرة الثالثة يتصل الأب، قفزت سلمى من مكانها، وشوشت أمها بالسؤال، وكان أن قررت الأم بسرعة على غير عادتها: "أخبريه أن جدتك مريضة". تسللت سلمى خارجة حتى أطراف التجمع على الطريق الترابي، مخافة أن يسمع الأب حوارات العائلة الصاخبة.لا تعرف سلمى لماذا كذبت أمها، لكنها كانت تعرف أنها ستكذب ولذا سألتها. حين أنهتْ المكالمة، كانت الفتاة الصغيرة تقف ورائها، وبدون مقدمات قالت لسلمى مثبتة نظرتها عليها: لقد رأيت كل شيء! أمي وجدتي تكذبان... شعرت نادية بالقشعريرة وتلك الفجوة التي تغرق فيها، كما حدث لحظة اقتحام المسلحين للمقهى، فسألتها: هل ستخبريني ما حدث؟ بدون تردد، إذ يبدو أنها قد قررت ذلك قبل السؤال ذاته، تدفقت الفتاة في قصتها التي تركت سلمى غارقة في الفجوة، تسح دموعاً لا تعرف لأي سبب انهمرت. كانت الفتاة الصغيرة قد شهدت من فتحة صغيرة في سطح البيت الترابي ما لم تعترف به النساء في الداخل. سألتها سلمى إن كان الأمر حدث أيضاً لزوجة الخال الأخرى، أخبرتها الفتاة أن الرجلين الآخرين اضطرا لتهديد العجوز وعزل الأطفال في الغرفة الأخرى.

سؤال أخير: هل ستخبرين أحداً غيري بهذا؟ لا، لا أستطيع..

مطر

قبل أيام فقط، كان نادية قد ابتعثت من قبل أمها لتطالب الجارة في الطابق الأرضي بالإيجار المتأخر. كانت نادية دوماً الرسولة المفضلة لأمها. فبرودها وعدم تعاطفها، لا تستمع للأعذار المقدمة من قبل المرأة الشابة، ولا يهمها إن كان ما ستقوله مؤذياً للمشاعر أم لا. إن قالت لها المرأة لدينا أفواه كثر لنطعمها، تذكّرها نادية بأن أسعار حبوب منع الحمل أرخص من شوال السكر، وإن قالت لها أن الزوج خسر عمله بسبب الإجراءات ضد وباء كورونا، توضح لها نادية أن تكلفة القات والسجائر يومياً تساوي تقريباً تكلفة الإيجار... وعلى الرغم من أن المرأة لم تكن لتقول الكثير، إلا أن نادية كانت تعرف أنها تكرهها، لكن هذا آخر ما يمكن أن يسبّب لها الضيق. لذا حين اندفع الجميع لمساعدتها بينما كانت الشقة تغرق بمياه الأمطار، ذكّرتهم نادية أنهم كانوا على وشك أن يطردوها بسبب الإيجار، فلماذا تتلبسهم الآن روح الشهامة؟

كان الأخ مثل أمه، ينظر لنادية على أنها روح شريرة لا أمل في خلاصها أو أنسنتها. شرحت لها الأم أن هذين موضوعين منفصلين، المرأة مع أطفالها في الأسفل تطلب النجدة، والفتى لا يستطيع مساعدتها لأن الزوج غير موجود. تبقّى أن تقوم نادية وأخواتها بالمهمة. وافقت نادية كي تتجنب نقاشاً قد يطول ساعات مع أمها، وقد يؤدي لأن تخبر الأم الأخ المتسلط أن نادية تجلس بجوار النافذة. وهذا سيشعل حرباً، حيث الجلوس بجانب النافذة يعد إحدى الكبائر حتى لو كانت الستائر تحجب من في الداخل أو حتى لو كان الشارع بأكمله يغرق، لذا انصاعت صاغرة بنيّة العودة مسرعة للجلوس بجانب النافذة ومراقبة الشارع، علّها ترى السيول تجرف جثث الناس كما يُحكى كل مرة.

المبنى الذي يملكه والد نادية مكون من ثلاثة طوابق، الطابق الأرضي الذي لديه بابان: باب داخل العمارة نفسها، وباب منفصل للجهة الخلفية من الشارع، وهو باب واطئ يتسبب في الكارثة في كل موسم أمطار. لكن هذه المرة كانت الأسوأ. أزاحت المياه الهادرة الباب من

مكانه، وكانت على وشك اقتلاعه. حاولت الأم مع أطفالها بكل الطرق إسناد الباب وصد المياه، لكن سيولاً كتلك، كان من الممكن أن تحرك الجبال من مكانها وليس فقط ذاك الباب الصدئ. في هذه المدينة، يعرف سكان البيوت الأرضية أنهم عرضة للسيول والرطوبة والبرد القارس، لكن تلك الأمكنة هي الوحيدة التي تتناسب ووضعهم الاقتصادي، رجال ونساء لم يعرفوا غير تلك المدينة، بفقرها وأوبئتها وحروبها. لذا كان سهلاً على نادية في كل مرة تطالب فيها بالإيجار المتأخر، أو بتكلفة المياه المشتراة بأن تذكّرهم بأن الناس الآخرين لديهم قرى يعودون إليها، وبالتالي تصبح حياتها وحياة كل ذوي الأملاك أسهل.

تنظر نادية للمشهد متقززة. كانت مياه المجاري قد تدفقت من الحمام واختلطت بالماء القادم من الشارع، خاض الجميع فيها حتى منتصف سيقانهم، وضعت الأم أصغر الأطفال مع أخته التي تكبره بعام على سطح الثلاجة في المطبخ، بدا الطفلان مستمتعين بالمشهد من علو. يحاول الجميع تحريك الأشياء من أماكنها الأصلية لأماكن أخرى، لكن الماء كان في كل مكان. أخيراً اتفقت النساء على أن يقمن بنقل ما يمكن نقله إلى الخارج. لم تتوقف الأم عن الحركة، وهي تسعى لإعادة رسم ملامح الغرفة الوحيدة التي تنام فيها مع أولادها وأبيهم، غرفة متسعة ربما كان مخططاً لها أن تكون مخزناً أو إسطبلاً. كانت الأم تلتقط كل ما يطفو على السطح: العلب البلاستيكية، دمى بدون رؤوس، ملابس، أواني مطبخ. راقبت نادية كيف اندهشت المرأة حين فاجأتها فرشاة المكياج تطفو مع الأشياء، فالتقطتها بسرعة ناظرة إليها بمرارة. كانت نادية أيضاً قد لاحظت كيف أن الجدران نظيفة جداً، وسطح"البوتاجاز" القديم نظيف رغم كل الصدأ الذي يحيط به، وأسطوانة الغاز كانت مغطاة بمفرش مزهر ابتل حتى منتصفه.

لم تكن هناك خزانة ملابس في الغرفة ولا في الصالة، لكن نادية لاحظت أن الملابس منظومة كالورق في أكياس بلاستيكة، وموضوعة بعناية على سرير حديدي في الزاوية، لم تكن المياه قد تسلقت إلى سطحه بعد. والفتاة الصغيرة التي كانت تساعد الأم في إزاحة الأشياء، طلبت من أمها أن تعيد لملة خصلات شعرها لأنها لم تشأ استخدام يديها، كانت مشمئزة من يديها. لم تنهرها الأم كونها منشغلة، جففت يديها بملابسها وعقدت شعر الفتاة الصغيرة بتسامح.

نادية التي تحاول ألا تطأ الأرض الغارقة، اقترحت أن تساعد بأن تقف على الباب وأن تأخذ الأشياء خارجاً، طلبت الأم من نادية أن تأخذ الطفلين إلى منزلهم في الأعلى، كانا جافين وهادئين، طلبت الأم همساً من الفتاة التي تجلس على الثلاجة أن تعتني بأخيها، ثم ناولتها لنادية التي ذهبت بهما إلى الأعلى دون أن تتحدث إليهما. استقبلهما الأخ بحرارة وذهب بهما إلى النافذة لينظرا إلى الشارع، ومن النافذة شاهدت نادية المنظر المخيف: كانت السيارات تسبح في الطوفان غارقة تماماً في المياه الهادرة، مياه سوداء جرفت في طريقها كل ما يتحرك. صرخ

الأخ مرتاعاً، بينما يشاهد كلباً يتخبط في المياه وعبثاً يحاول الصعود، جرفته المياه بعيداً عن مدى النافذة، وفي نهاية الشارع انهار جدار حديث البناء وضاعت آثاره في المياه. كان المطر قد توقف عن الهطول، لكن تلك السيول التي تجوب المدينة ستحتاج الليل بطوله لتجد موطنها عميقاً في جوف الأرض. تذكرت نادية كيف في العام الفائت اقتلعت السيول إسفلت الشوارع والأشجار التي عرفتها منذ كانت طفلة، في هذه السنة، ربما ستقتلع مبان كاملة.

في المساء، كانت المدينة قد تناقلت أخبارها الحزينة وأحصت قتلاها، الذين كان أغلبهم أطفالاً. انسحبت المياه من الشوارع، وكان في مستطاع المارة سيئي الحظ مغادرة سلالم العمارات التي لجأوا إليها لساعات طويلة، تناقل الناس الأخبار عن الخسائر الرهيبة والبيوت المهدمة، وانتشرت صور الناس يتفقدون محلاتهم المنكوبة وبضاعتهم التي تلفت، وأمام التلفاز تسمّرت الأم وبجانبها الطفلين. كانت الأم مصرة أن نشرات الأخبار لا ريب ستورد هذا في أنبائها، لكنها لم تأت على ذكر الكارثة، وحين انتهت الأم من مراهنتها كان الولد الصغير قد نام في مكانه بسكينة، لذا حين طرقت أخته الباب بشعرها المرفوع على شكل كعكة صغيرة، تسأل إن كان بإمكانها إعادة إخوتها الصغار إلى المنزل، أمرت الأم نادية أن تحمل الفتى النائم لتعيده لأمه، ومرة أخرى تنصاع نادية لتتجنب سجالاً جديداً.

في الأسفل كانت المياه قد انحسرت كلياً، والغرفة عادت لشكلها الطبيعي، أُستحدثت حبال غسيل جديدة ونشرت عليها كل الأشياء، والباب الذي كادت الأمطار أن تقتلعه ثُبّت من جديد، وطلبت الأم من نادية أن تخبر أمها أن تسده بالإسمنت فلا ينفتح أبداً. وعلى السرير الحديدي، كانت أكياس الملابس المرتبة ما زالت منتصبة في أماكنها، وبجانبها لاحظت نادية وجود قدمي الأب يختبئ من وجود نادية في المنزل كما يفعل عادة الرجال. قبّلت الأم طفلها النائم ووضعته بجانب القدمين، وفي منتصف الغرفة انتصبت مبخرة مزخرفة جميلة الشكل مليئة بالجمرات المشتعلة. وقبل أن تخرج المرأة لتعيد لنادية الغطاء الصغير الذي أحضرت فيه الفتى النائم، وضعت على الجمرات قطعة بخور صغيرة، تسابق دخانها مع رائحتها الجميلة. فكرت نادية أن البيت المبتل برطوبته ورائحة المياه العفنة، يجدد أنفاسه بالبخور، وبأنه أكثر دفئاً من بيتهم الواسع الجاف والدافئ.

جزء من حقيقة

عليّ الذي خاب أمله في نفسه وفي العالم وفي الناس، ولكن بدرجة أكبر في سلمى ذاتها، ضبط نفسه لمرات كثيرة يفكر بأنه ضحية خيانة. ولشهر كامل لم يستطع تحديد إن كان غاضباً منها أم عليها. ولم يكن ما حدث ليغير لون حياته، أحسَّ أنه يأكل كالمعتاد ويتحدث كالمعتاد، لكن حين يجن الليل، كان العالم يتسع ليصبح هوة واحدة بفم عملاق. هوّةٌ على امتداد نظره ومدارات إحساسه، والزمن يصبح ساعة لا نهاية لها. حاول عليّ أن يبعثر من وقته ما استطاع، التزم بمقايل القات، كما لم يتوانَ عن أن يصبح طفيلياً متى اقتضت الحاجة، ولم يرفض عرضاً قط لشخص اقترح أن يشتري له القات. اخترع عليّ من الحكايات ما لا يعد ولا يحصى، وكان في طريقه يغترف من الأكاذيب والمبالغات ما لم ينتبه لها هو، لكن الآخرين فعلوا.

ما الذي يجعل العالم ضيقاً كقبر. ما الذي تحمله رياح المدن التعيسة، فيصيب الروح بالموت قبل الرصاص وقبل المرض؟ ما الذنب الذي ارتكبناه في حيوات سابقة لنكون ما نحن عليه الآن؟ هذا الألم الماشي على قدمين، وهذه التعاسة بشهية مفتوحة؟

لم يكتب عليّ خلال تلك المرحلة الكثير، لكن ظهور الوباء في المدينة كان المادة الخصبة التي ستتيح لأي كاتب مثل عليّ أن يجد ما يكتب عنه. وبجنون الصحافي، تسلل عليّ إلى المستشفيات والعيادات الخاصة، راقب الناس في الشوارع، آملاً بأن يجد قصته الذهبية، وأن يرى سلمى على حين غفلة. أراد أن يتطلع هذه المرة في إنحناءاتها، وفي عينيها دون أن يكون مجبراً على قول شيء، تتبع حركة السيارات المسرعة والمغطاة، وفي أسواق القات استمع بعناية لكل ما يمكن أن يقال من نميمة، ومن تبادل لآخر أخبار المدينة. وجد عليّ الكثير ليكتب، ولن يكون للغته الركيكة أي تأثير على قوة ما سيكتب.

في الغرفة، نسّق حكاياته ومشاهداته، كتب عن الوباء، عن المستشفيات الهلعة، والأطباء

المغادرين نوباتهم بأعذار لا تقال، عن مقايل قات الأطباء في الأروقة، عن عشرات الحكايات لأناس كانوا يعانون من ارتفاع في ضغط الدم زاروا المستشفيات ثم لم يعودوا أحياء، عن إبرة الرحمة التي أرهبت الناس أكثر من الوفاة، عن الأسرّة قليلة العدد في الحجر الصحي، وعن الكهرباء التي تقتل العنايات المركزة. عن تهمة الوباء التي تتسلل لبيوت المصابين فيُنْبذون من كل الحارات المجاورة، عن إصرار المساجد على نفيها، عن إيمان الناس غير المنتهي ولا المفَسّر بالله و بالعدالة و بالنجاة لا محالة، عن الجثث التي تعفنت في الدكاكين، عن الجثث التي رميت بجانب المقابر مخافة دفنها، أو لعدم المقدرة على دفع تكاليف دفنها، عن العزاءات وأسباب الوفاة الكاذبة التي تملأ صفحات مواقع التواصل الاجتماعي، عن الجنازات الصامتة، عن الدموع الغريبة، إذ يموت الميت ولا يعرف الأهل هل يبكون، أم يعتكفون للصلاة بانتظار موتهم الخاص، عن فرق المخابرات التي تجوب الشوارع تلاحق الإشاعات، ثم تأخذ الرجال من أسرّة زوجاتهم لمواقع الحجر الصحي ثم تعيدهم بأمانة: باردي الجثث مطفأي العيون. عن المرأة التي تحمل قطعة من سريرها أمام المنزل تعرضها للبيع، وتعلن أن زوجها مات بالحرب وفقدت هي عملها خلال الوباء، وأن هناك طفلين ينتظران غداءً، وبجانب قطعة السرير بلون البيج المزخرفة والمصقولة، يقف ولدان صغيران قذران، بينما تلوح الأم بيدها السمراء المجعدة. عن المشردين الذين كانوا يملأون الشوارع، ثم تضاعفوا فصاروا يملأون كل الأماكن. عن وزراء الصحة في كل الأشطار من البلد، عن صفحات التويتر الرسمية، عن الرجل الذي عدَّ خمسين عزاءً على الفيسبوك في يوم واحد، ثم قرأ على تويتر أن "إحصائية وفيات اليوم هي ٣ أشخاص".
كتب عليّ وقال: يكذبون، الحقيقة أسوأ مما لكم أن تتخيلوا. كتب عليّ وأعاد التصحيح، ثم كتب مرة أخرى وأضاف ما أضاف، وكل ما كان يراه هو "عليّ" الذي يعتقد أنه ضحيةٌ لفتاة لم تخبره عن لون بشرتها، وكل ما يشعره هو الألم الغريب الذي لم يستوضح نفسه إن كان اشتياقاً أم ذنباً أم كل ما يمكن أن يسبب للإنسان الألم. أكمل عليّ ما بدأ، عنون ملف الوورد المليء بالخطوط الحمراء، حيث قاموس الكمبيوتر لم يتعرف على كلمات تعج بالأخطاء الإملائية والتعابير المحلية، ثم بعثه إلى الصحيفة الإلكترونية التي لم يسأل في أي شطر من البلد كانت. ربما لأنه لم يزل يعيش في كل البلد، ولم يستخدم بعد: "كان البلد".

شارك الحكايات في مجالس قات وحافلات وأسواق لا عد لها ولا حصر، نقل شهاداته كما هي، ولم يخفِ شيئاً، كان الجميع يعتقد أن هذا الوباء مثله مثل كل شيء آخر سيزول قريباً، وسيكون الإنسان - ليس الإنسان الذي ينتمي لأرض عليّ، بل الإنسان الآخر خارج تلك الأرض المنكوبة - قادراً على أن يهزمه كما هزم كل وباء من قبل. ولم يفكر قط أن هذا الوباء سيكون أيضاً سبب هلاكه، ليس بأن يدمر رئتيه، أو أن تُعطى له إبرة الرحمة كما يُشاع، بل بطريقة أكثر ابتكاراً. ما اعتقد عليّ أنه يوم آخر وعمل ركيك آخر، كان يسطر صفحة

من حياته وحياة آخرين، ولقد فكر كثيراً جداً، فكر بطريقة موته وبطريقة عذابه، تخيل كل الطرق التي يمكن أن يموت فيها بشر، وأن يعاني فيها إنسان، واسترجع كل الأمثلة من الأفلام التي شاهدها والقصص التي سمعها، من ذاك الناجح الذي ينزلق بقشرة موزة في الشارع فيصطدم رأسه بالأرض ويموت، إلى ذلك الذي تخترقه رصاصة صديقه بالخطأ بينما يحتفل بزفافه السعيد. فكر أيضاً بالموت في حوادث السيارات، وبالتلاشي تحت قوة القذائف وبالاختناق تحت الأنقاض. لكنه لم يفكر بما هو محدق به، ولم يسمع تحذيرات الأصحاب الهامسة بأن لا أحد يتحدث عن المستشفيات وأعداد المصابين واللقاحات الممنوعة. لذا فكل خيالاته عن الموت والعذاب كانت أكثر بعداً من الطريق الذي كان يمشي باتجاهه.

أمضى لياليه الباقية قبيل أن تتغير حياته إلى الأبد، في الحريق ذاته. شيء ما يلتهمه من الداخل، يحفر عميقاً في أحشائه، يوقد ناره وينفي السكينة لعوالم لا يمكن له أن يصلها مهما حاول. لم تكن سلمى هي السبب الوحيد، كان الفقر، الربيع، الحياة التي لا يستطيع إليها سبيلاً، الوحدة، والرغبة المحترقة، الرغبة بجسد بشري يحتك بجسده، بكلمة حنونة، بهمس في الليالي، برائحة غير رائحة غرفته، وغير رائحة ثيابه وثياب من يشاركونه الغرفة. لقد شعر مراراً بالظلم من قبل، وشعر بالذنب أيضاً، لكنه آنذاك بدأ ينقم على نفسه وعلى كل شي، كان هو المؤذي والمجني عليه، ولم يكن هناك من ينصفه، وحتى إهانته لسلمى بتلك الطريقة، كان خطؤها هي.

لكن سرعان ما سيصبح كل ما سبق ترفاً، حين سيجد نفسه وسط ضوء الشمس الدافئ، وفي شارع عادي مليءٍ بالبشر، وهو يفكر بما سيكون غداؤه لذلك اليوم، تحيط به ثلة من الأقوياء المسلحين، عيونهم محمرة وأسنانهم مشوهة، المستعدين للضرب والشتم في كل المناسبات، ويفاجأ هو بضربة من عقب بندقية في خصره النحيل، ثم بكفّ أحدهم تهوي على وجهه المأخوذ بالصدمة، وأيادٍ كثيرة ترفعه ثم ترمي به في سيارة، لم يجد الوقت لتحديد شكلها، وأحدهم يهزأ به قائلاً: سنريك الحقيقة كلها التي تبحث عنها.

وحيدة في الحديقة

تعـود للذاكـرة حكايـةُ قريبـة مـن قريبـات سـلمى، قصـيرةِ القامـة، ممتلئـة الصـدر، دومـاً مـا تخضّـب يديهـا بالحنـاء، هادئـةً، تعمـل في النظافـة. كانـت تكسـب أجـراً ضئيـلاً، لكنهـا أفضـل مـن سـلمى عـلى أي حـال، عـلى الأقـل كانـت أشـجع منهـا ومسـتقلة ماديـاً. كانـت سـلمى التـي تصغرهـا سـناً تغبطهـا سراً، عـلى الرغـم مـن الرائحـة الفظيعـة التـي تفـوح منهـا عندمـا تقابلهـا صدفـةً، وهـي عائـدةٌ مـن عملهـا عـلى شـاحنات النظافـة التـي تجـوب المدينـة المكتظـة دومـاً بالقمامـة، والتـي لم يتعلـم سـاكنوها قـط كيـف يصبحـون أنظـف، أو عـلى الأقـل كيـف يرمـون أكيـاس القمامـة في البراميـل. تلـك الفتـاة، مثـل كثيريـن مـن عائلـة سـلمى، كانـت أعمالهـم محـددة منـذ الميـلاد لتكـون في قطـاع النظافـة.

قبـل الحـرب، وفي لحظـة مـن لحظـات سـلمى الغريبـة، عـادت أمهـا مـن الخـارج فزعـةً وصرّحـت: ليـالي في السـجن! وحتـى حينهـا، فكـرت سـلمى أنـه كيـف للفقـراء والمهمشـين والمنبوذيـن أن يفكـروا بأسـماء جميلـة كهـذه، كيـف لأهـل أمهـا أن يفكـروا باسـم لطيـف كهـذا الاسـم، ويـا تـرى مـن الـذي اختـاره؟ هـل هـو اختيـار جماعـي مثـل كل شيء آخـر في حياتهـم؟ ردّدت أمهـا الخـبر تنتظـر منهـا ردة فعـل، لم تسـأل سـلمى لمـاذا ولا متـى ولا كيـف؟ فقـط قالـت لهـا: هـل سـنذهب إليهـا؟ عـلى عكـس أمهـا، سـلمى لا تـرى في هـذا الخـبر صدمـةً كـبرى، بـل نتيجـةً اعتياديـة لكـون الفتـاة ببـشرة سـوداء، وتعمـل في النظافـة.

في السـجن بكـت المسـكينة، بكـت بمـرارة وقتـاً طويـلاً، وطلبـت منهـم أن يحـضروا حنّـاءً في المـرة القادمـة. كانـت تهمـة الفتـاة القصـيرة والتـي لم تتعـدَّ السـابعة عـشرة، أنهـا ارتكبـت فعـلاً خادشـاً للحيـاء في الشـارع العـام. غطّـت وجههـا، وبكـت في كل مـرة رددت فيهـا التهمـة، وهـي تـشرح أنهـا لا تفهـم مـاذا يعنـي هـذا؟ ومـا الـذي خُـدِش؟ وحيـاء مـن بالضبـط؟ واتفقـت معهـا النسـوة اللاتي زرنهـا أن هـذا شيءٌ عجيـب. شرحـت سـلمى للتجمـع العائـلي مـاذا تعنـي الكلمتـان، حاولـت تبسـيطها قـدر مـا اسـتطاعت عـلى الرغـم مـن أنهـا هـي نفسـها مـا كانـت لتعـرفَ مـا هـي

ملابسـات جريمـة كتلـك، حتـى بعـد أن كـبرت واطّلعـت عـلى صياغـة القانـون، إلا أنهـا لم تجـد وضعيـات معينـة لتطبيـق هـذا القانـون.

ليـالي التـي بكـت حـين دخلـت أول مـرة للسـجن، خرجـت منـه تـشرح لسـلمى وضعيـات الجريمـة والقانـون الفضفـاض الـذي يغطيهـا. فالشـابة التـي كانـت تركـب سـيارة النظافـة مـع زمـلاء وأقـارب لهـا يتبادلـون النـكات، ويضربـون بعضهـم بالمكانـس، كانـت تخـدش الحيـاء العـام لأنهـا لم تكـن بصحبـة قريـب مـن الدرجـة الأولى.. وسـيدة أخـرى كانـت في الحديقـة الهنديـة تحشـو يـديّ عشـيقها تحـت حمالـة نهديهـا، وفتـاة أخـرى أمسـكت بيـدي حبيبهـا في المطعـم، كلهـنَّ صـادف أن عـبر بجانبهـنَّ رجـل أمـن، وقـرر ذلـك الرجـل أنهـنَّ خدشـن الحيـاء العـام. ولـو كـنَّ أكـثر حظـاً، أو كان الرجـل بمـزاج رائـق لـكان تغـاضى عـن ذلـك. شـاهدت سـلمى بعـد ذلـك كيـف أن هنـاك عـشرات الفتيـان والفتيـات يجوبـون الشـوارع مـع أصدقائهـم في السـيارات، ويحتضنـون بعضهـم في المقاهـي، ويتبادلـون القبـل وراء السـتائر البلاسـتيكية في المطاعـم. لكـن أولئـك لا يخدشـون الحيـاء العـام لأن ملابسـهم أنظـف، ولـون جلودهـم أكـثر صحـة ونضـارة، لأن أظافـر البنـات غـير مطليـة بالحنـاء بـل بالطـلاء الفاخـر، لأن سـياراتهم أكـثر لمعانـاً وأسـماءهم أكـثر رنينـاً، عـلى الرغـم مـن أن اسـم ليـالي كان مـن المفـترض أن يحميهـا و لـو قليـلاً. ومـع هـذا فهـي أكـثر حظـاً مـن ذوات البـشرة الأصفـى، فقـد عـادت لعائلتهـا عـلى عكـس الأخريـات اللـواتي لم يعـدن قـط، وكان ملجأهـنَّ الشـارع.

اليـوم - بينـما تتذكـر- تقـرر سـلمى أنهـا سـتذهب لزيـارة الحديقـة الهنديـة. قالـت لهـا قريبـة أخـرى أن الحديقـة الهنديـة هـي ملتقـى العشـاق، هـي المسلسـل الـتركي الحقيقـي، وأنهـا هنـاك سـترى كل مـا لا يخطـر عـلى بالهـا. ارتـدت سـلمى قفازاتهـا القطنيـة، أسـدلت برقعهـا، وأنزلـت القطعـة الشـفافة عـلى عينيهـا، وأخـبرت أمهـا أنهـا ذاهبـة لزيـارة صديقتهـا. في الطريـق إلى الحديقـة الهنديـة، سرحـت سـلمى في خيـالات اليقظـة: مـاذا لـو – كـما في الأفـلام – ذهبـت للحديقـة الهنديـة؟ ثـم قُبـض عليهـا بتهمـة خـدش الحيـاء العـام لأي سـبب يـراه شرطـي الآداب ملائمـاً للتهمـة، ثـم اقتيـدت إلى السـجن. وفي السـجن تتفاجـأ بـأن زنزانـة عـلي هنـاك بجانـب زنزانتهـا! ثـم مـاذا لـو – كـما في الأحـلام – اسـتطاع عـلي شـقَّ نفـق صغـير إليهـا، ركـع أمامهـا، واعتـذر عـن خذلانـه، وعـن اختفائـه، وعـن حماقاتـه، ثـم شـق نفـق آخـر خـارج السـجن، وفـر الاثنـان خارجـاً؟ مـاذا لـو انتهـت رحلـة الأنفـاق هـذه في عـالم آخـر؟ عـالم أشـجاره تحيـط بجانبـي الطريـق، وتتمـشى سـيداته المسـنات دون قلـق وببـذلات رياضيـة، وعـلى الأسـوار الوطئـة للحدائـق تجلـس الشـابات الصغيرات، وبـين سـيقانهنَّ يسـتقيم الشـبان أحباؤهـنَّ، يحتضنـون بـين كفوفهـم وجهوههـنَّ السـعيدة، ولا يوجد في أقسـام الشرطـة لديهـم مسـمًّى لشرطـي الآداب، ولا قوانـين الآداب، وليـس هنـاك مـن تهـم تتعلـق بمـن يكتـب عـن المستشـفيات الهالكـة، والفتيـات المغتصبـات مـن قبـل مسـؤولي السـلطة. مـاذا لـو كانـت رحلـة الأنفـاق هـذه بدايـة ضـوء جميـل ينعكـس عـلى بشرتهـا القاتمـة، فـلا يؤذيهـا

ولا يطعـن ثقتهـا بنفسـها وبمبادئهـا؟ مـن أيـن تبـدأ رحلـة الأنفـاق إذاً؟ إن كانـت البدايـة مـن السـجن مسـتحيلة.

تتنهـد سـلمى وتفكـر أنـه بالتأكيـد ليـس مـن أقـصى الحديقـة، حيـث اتخـذت موقعهـا وتدنـدن لحناً حزيناً. يحيـط بهـا اللحـنُ الحزيـن كأنمـا يلتهمهـا، وتصبـح الشـخص الأكـثر وحـدةً عـلى الأرض، الفتـاة التـي يمكـن أن تشـيخ الـوردات مـن ثقـل روحهـا، كانـت هنـاك بلحنهـا الحزيـن تسـح دموعهـا بصمـت، وهـي تشـاهد العشـاق الذيـن لم تتعـدَّ مشـاهد مسلسـلهم الـتركي أكـثر مـن لمـس اليديـن، العشـاق الهامسـين القلقـين مـن شرطـة الآداب ومـن الأوبئـة ومـن الأهـالي ومـن الطـيران والقصـف والاعتقـالات العشـوائية بتهـم غـير مفهومـة. عـادت سـلمى لتسـأل نفسـها سـؤالها الاعتيـادي الدائـم: مـا الـذي يحزنـك بالضبـط؟ ولمـاذا هـي في الحديقـة الهنديـة؟ لا تعـرف سـلمى الإجابـة عـلى وجـه الدقـة، لكـن الافـتراض أنهـا هنـاك، لأنهـا أرادت أن تصـدق أن هنـاك حباً في هـذه الأرض، وأنـه ليـس في الأفـلام والروايـات فحسـب. أرادت أن تتخيـل نفسـها كائنـاً عاديـاً ضمـن نطـاق هـذه المدينـة المتوحشـة. أرادت أن تـرى إن كان بإمكانهـا وعـلي أن يتشـاطرا كرسـياً هنـاك إنْ عـاد يومـاً مـن اختفائـه الرهيـب، أرادت أن تكـذب وتقـول إن عـلي لم يرفضهـا، كان فقـط خائفـاً عليهـا.

في طريـق العـودة مـن الحديقـة الهنديـة، اجتـازت سـلمى البوابـة الحديديـة، وهمسـت مودعـة العجـوز الشـارد الـذي يقبـع عـلى كـرسي خشـبي يـدوي الصنـع. لم يـرد عليهـا العجـوز، ربمـا لأنـه لم يسـمعها مـن الأسـاس، نظـرت إليـه مـرة أخـرى، ثـم اقتربـت منـه وقالـت بصـوت عـال:

- هـل سـتدعو لي يـا حـاج إذا طلبـت منـك ذلـك؟ اسـتغرب العجـوز فعـلاً، ولم يسـتطع الـرد بسرعـة، خاصـة أنـه غـير قـادر عـلى رؤيـة عينيهـا، فطلـب منهـا ترديـد مـا قالتـه، رددتـه بصـوت أعـلى، وافـق العجـوز ومـا زال مندهشـاً، قالـت لـه سـلمى:

- لي حبيب مختفٍ، ربما في السجن، ادعُ أن يفرج عنه، وأن نأتي لنجلس هنا.

كانـت تتوقـع مـن العجـوز أن ينهرهـا، ويشـتم النسـاء وجيلهـا. لكـن العجـوز رفـع يديـه عالياً، دعـا بـأن يفـك اللـه كربـه وكربهـا، وبـأن يعيـده إليهـا سـالماً، وبـأن يجمـع شـملهما، ثـم غنّـى: "ويـارب مـن لـه حبيـب لا تحرمـه مـن حبيبـه، لا تحرمـه مـن حبيبـه"، وختـم أغنيتـه بـأن غمـز لهـا. تشـعر سـلمى بسـعادة، وتقتنـع بشـكل كامـل أن دعـوة العجـوز لا شـك مسـتجابةٌ. نامـت هانئـةً ليلتهـا، لكنهـا في الصبـاح ذكّـرت نفسـها أن عـلي هـو مـن تخـلى عنهـا، هـو مـن لم يردهـا مـن الأسـاس، وحتـى وإن عـاد فلـن يجتمـع شـملهما لأنـه لم يتفـرق مـن الأسـاس، لم يكـن هنـاك أي شـمل. تتفـق

سـلمى مـع الصـوت الـذي داخلهـا أنهـا لتجعـل مـن نفسـها أضحوكـة إذ هـي تفكـر بهـذه الطريقـة، وإن كانـت سـتفعل شـيئاً، يجـب عليهـا أن تُخـرج عـلي مـن معتقلـه أينـما كان، وبعدهـا تبصـق في وجهـه. هكـذا سـتكون أرضـت كل الأطـراف المتصارعـة في أعماقهـا: كبريـاءهـا ومحبتهـا! لـذا فكـرت سـلمى كيـف سـيكون شـكل الرسـالة التـي سـتبعثها للفتـاة ذات الوجـه النحيـل عـلى الفيسـبوك. كانـت قـد تتبعـت الروابـط حتـى اهتـدت للفتـاة التـي أرادت أن تبحـث عـن القتـلى والأسرى والمعتقلـين والمخفيـين.

رحلة الجثث العائدة

علمت نادية بخبر اختفاء علي من خلال منشورات التضامن من أصدقائه. أيدت التضامن، وأعادت نشره مراراً، قالت إن هذا الشخص هو قريبها، ولا يستحق أن يختفي. لكن لا التضامن ولا التجاهل كانا يُحدِثان فارقاً في ذلك الزمن.

ذهبت لوداد تحدثها عما حدث، فطفرت دمعةٌ من عين وداد، وهي تنظر إلى صورة الفتى الريفي النحيل. سخرت نادية من دمعتها، وسألتها: "ما المبكي في الأمر؟"، لقد كان يعرف أن ما يفعله سيتسبب يوماً في مقتله. ثم حدثتها عن قصة الجثة، وكيف طلبت منه أن يكتب عنها، وأرشدته إليها ليحصل على مادة جديدة يكسب من نشرها مالاً. والآن أصبح خبر اختفائه مجانياً. فقط الجثث المرمية في صناديق القمامة والمنشقة لنصفين، هي من تجلب مالاً، أما الاختفاءات العادية التي تطال آلاف الأشخاص يومياً، فهي خبرٌ يعاد نشره وتكراره، وقد يتسبب حتى في خفض القيمة الشرائية لعملة الجثث الهامدة، التي تعتاش عليها الكلاب في الجبهات، وعلى جانبي الطرق في المدن المظلمة. و ضربت لها مثلاً آخر: العجوز الذي جاء يبحث عن حفيده الضائع في المدينة، هل هناك أغبى من هذا؟ سألت نادية، وأجابت: لا! فالعجوز كان يعرف أنه لن يجد حفيده في أي من المدن التي زارها، ومن أخبره أن حفيده يقبع أسيراً في المدينة الكبيرة قد يكون هو القاتل ذاته، الذي اغتال ذلك الحفيد في مدينة أخرى، كي يسطو على بندقيته، أو على ألف ريال يحملها في جيبه. وشرحت نادية أنه كان أحرى بالعجوز أن يحتفظ بماله لبقية أحفاده، وأن يتجاهل طلبات الأم لأنها ليست أكثر من جاهلة. و"هل تعرفين ماذا حدث لذلك العجوز؟" سألت نادية مرة أخرى، وأجابت، لقد مات بمجرد أن وطأت قدماه أرض وادي قريته. وأنا لا أبالغ هنا. لقد أخبر أحدهم أبي هذه التفاصيل بمكالمة هاتفية، لقد مات العجوز لأنه كان متعباً من طول السفر، كان منهكاً وضعيفاً، وبالتالي فإن الأم الحمقاء فقدت ابنها وحماها الذي كان يهتم بها.

تسحُّ دموع وداد وهي تستمع لحكايات صديقتها. ثم تنهدت أخيراً وقالت: "لن يستطيع

أحد إنقاذ الأحياء، لكن ماذا – على الأقل – لو كان أحدهم قادراً على إعادة الموتى إلى قراهم؟".

لم تستمع نادية إلى مناجاتها، لكنها – وداد - استمعت إلى كلمات ذاتها بوعي ملتهب، وكأنما كانت على أبواب تلك اللحظة أعمارٌ كاملة، وأنها أخيراً دلفت إلى حياتها/فكرتها الحقيقية. وكالمسحورة، تركت نادية تعبث بهاتفها، وتحصي عدد الإعجابات التي نالتها جرّاء تضامنها ونشرها لصورة علي، واستقرت على طاولتها تعمل على كمبيوترها. ومن صفحة لأخرى، بحثت وداد عمّا يمكن أن يفيدها في مهمة حياتها التي بدأت فقط منذ لحظة. استطلعت عدد الجهات المتقاتلة، من ضد من، ومن مع من، ومن ضد الجميع، ومتى يكون الجميع ضد أحدهم، ثم مسحت في الخريطة عن نقاط الاشتعال والجبهات المفتوحة، ثم راجعت سلاسل الهزائم والانتصارات. بعد ذلك بحثت عن أرقام القتلى والمفقودين والمخفيين قسراً والأسرى، وما هي الجهات التي يمكن أن تتفاوض/ تبحث بشأنهم. لم يكن هناك الكثير، والجميع يكذّب الجميع، ولا شيء يمكن أن تثق به لأي جهة لأن كل الجهات كاذبةٌ مقيتة مجرمة.

لأيام قادمة انكبّت وداد بدعم من نادية على عمل لا ينتهي. في كل المجموعات على مواقع التواصل الاجتماعي دعت للتطوع ولدعم فكرتها، بعد أن صاغتها باللغتين العربية والإنجليزية، ودعمتها بكل الإحصائيات والخرائط. بدأت بالحديث عن الوضع المأساوي للبلد بشطورها وأقاليمها، وبأن سادة الحروب يتفقون على شيء واحد، وهو أن الموتى صاروا ماضٍ، وأن الجرحى في طريقهم ليكونوا ماضٍ أيضاً، وبأن الأسرى ليسوا سوى عبء غذائي. أخبرتهم أنها تحتاج للمساندة للبدء بحملة يزورون فيها خطوط القتال الحالية والسابقة، ويبحثون هناك عن الجثث المرمية، ثم يقومون بدفنها أينما استطاعوا، وإن كانوا على مقدرة فيعيدونها إلى ذويها. أخبرتهم أنها تريد أن تُعلِم الأمهات عما إذا كان أولادهنَّ أسرى أو قتلى، حتى لا يموت جدٌّ آخر من إنهاك عبوره المدن الآثمة القاتمة. ثم زارت وداد مع نادية - التي تكذب عند كل خروج من المنزل - ومع المتطوعين الآخرين المقرات الأمنية، الأجهزة العسكرية، الوزارات، المنظمات، مستجدين التصاريح والوساطات كي لا يتعرضوا للاعتقال أو القتل.

وحين بدا أن هذا سينجح، تحدثت وداد مع أمها، أخبرتها أنها ستغيّر حياتها، ولن يكون هناك عودة لحياة سابقة، إنها مع نادية ستبدآن العمل الذي طالما أردن أن يفعلنه بعيداً عن النفاق. لم تصدق الأم ما سمعته، وكانت تعرف أنه ليس باستطاعتها أن تمنع وداد مهما تنوي، لذا حذرتها أخيراً: ستتسببين في مقتل صديقتك.

في أول رحلة لاسترداد الجثث، عبرت الشابتان الجبال الجرداء برفقة أمّ وثلاثة رجال، شاب من متطوعي المبادرة، وآخرين من قرية الأم، في سيارة قديمة بنية وصفراء اللون، كانت ترتج

طوال الطريق. جلستا بجانب الأم. تراقب نادية يدي الأم المتجعدتين المتغضنتين، وكان ما حول عينيها يشبه يديها. وفكرت وداد أن الأم مجرد تجعيدة كبيرة تسبب بها الزمن وقسوة الحياة، ولم تفهم لماذا ترتدي لثاماً، وهي بهذا العمر وبهذه التجاعيد.

صامتةٌ الأم، صمتها مرٌّ وجارح، صمت الثكلى التي صلّت خلال عام كامل أن يحمي الله فتاها أينما كان، الصغير الذي كان يرعى أغنامه قبل أن يمر المقاتلون، أعطوه كلاشينكوفاً واصطحبوه، وبعث هو بأغنامه مع أخيه الأصغر. هلعت الأم، وصرخت تدور في أرجاء القرية أن أعيدوه قبل أن يعاد جثةً مثل غيره، لكنهم لم يعيدوه، لا حياً ولا جثةً. انتظرت الأم لعام كامل، انتظرت أن يعود، انتظرت أن يبعث برسالة مع قريب أو غريب، انتظرت أن يأتي لدكان القرية اتصالٌ منه كونها لا تملك هاتفاً، انتظرت في الليالي الدافئة، وفي ليالي البرد. سمعت حفيف الأشجار وخطوات الكلاب التائهة، فكرت بقدميه وبشعره وبعينيه، و تذكرت أن آخر مرة احتضنته فيها كانت وهو في الثانية ربما. سألت: لماذا لم تحتضنه طوال تلك السنين؟ لماذا لم تقتص دقيقةً واحدة من عملها ومشاغلها لتشّم شعره، ولتعرف كم طالت ساقاه ؟ سألت أباه مراراً وتكراراً أن يذهب للبحث عنه، لكن الأب راوح بين القلق وبين الفخر. كان قد تسلم في أول شهرين من رحيل الفتى مبلغاً مالياً، لذا فقد انتظر المزيد. لكن المزيد لم يأت قط، وقبل شهر واحد جاءه خبرٌ من قرية أخرى أن ابنه قتل قرب الصحراء مع مجموعة من آخرين، وأن لا أحدَ سيعيد جثثهم، لأن الرحلة بعيدةٌ وشاقة وتكلف مالاً.

دارت الأم مرة أخرى على القرية تبكي وتعول وتسأل أن يعيدوه، أعيدوه للمرة الأخيرة، أعيدوه مرة واحدة. لكن لا أحدَ سيعيده، والأم التي أصبحت تجعيدةً في سن الأربعين، ستجوب القرى والشوارع، ولن تيأس حتى يهديها أحدهم لمبادرة الفتيات. في أول مقابلة، وعدت وداد الأم المكلومة بأنها ستبحث عنه حتى تجده، قالت لها الأم بصلابة إنها ستكون معها خطوة بخطوة. حاولت وداد إقناعها بأنها لن تذهب، بل سيذهب رجال آخرون، لكن الأمر تمّ.

تبادل الرجلان من قرية الأم قيادة السيارة، وجلست هي دون أن تسند ظهرها أغلب الوقت، تَسْبح في قوقعة من فراغ، تحوم حول شعر ابنها الفقيد وقدميه ولون عينيه وصف أسنانه العلوية، صوته حين كان يحبو، وصوته حين طارد الكلاب لأول مرة، وصوته حين أصبح مراهقاً. ولم يكبر الصوت ليصير صوتاً حاداً مثل أصوات كل الرجال. مات الصوت مع جسده. لو كان تبقّى لها الصوتُ، ما كانت لتعترض، كانت لترضى، كانت لتنام محيطة كل حواسها بصوته فحسب، وكانت لتتنازل حتى عن رائحة شعره التي لم تشمّها منذ سنين. وكيف يموت الصوت، ولا علاقة له بالجسد؟ ولماذا يخاف هؤلاء الرجال؟ ولِمَ ترتجف الصبية بجوارها؟ مات صبي صغير خلف هذه الجبال الجرداء، ولم يعرف أحد إن كان جائعاً أم كان قد تناول

وجبة، إن كان فكر بأمه أم فكر بأبيه أم لم يفكر أساساً، ما الذي يخيف في هذا العالم أكثر من صحراء وليل وحرب بالنسبة لمراهق صغير؟
لا تخافوا وامضوا.

في كل نقطة تفتيش، كانت نادية تستفيق وتنتظر إن كان مطلوباً منهم أن يعرضوا هوياتهم وبالتالي التصريح بالعبور، وفي كل نقطة تفتيش يتصاعد التوتر والقلق لكأنما كان الجميع هارباً وعلى وشك أن ينكشف، وتلك السمة طُبِعت على وجوه كل العابرين: يتحينون لحظة الإفلات من نقاط التفتيش.

عند قرابة الخامسة، خرجت السيارة عن طريق الإسفلت، ودخلت في طريق ترابي مليء بالصخور. كان الجو بارداً، وبدا أن الأمطار شوهت معالم الطريق وتركت حفراً هائلة. الرجلان من القرية كانا يتبعان إشارات نقلها لهما أحد الجنود العائدين، يتناقشان بصوت خفيض، والشابُ من المبادرة لا يعلق بل يستمع باهتمام.

- سنصل قريباً.. صرّح أحد الرجلين، في دعوة للاستعداد لما سيأتي.

تلتفتت الشابتان، كان عمود كهرباء ضخم يُرى من بعيد وقد نكس نحو الأسفل، ثم عبروا بمدرعة محطمة وسيارات محترقة. تراجعت نادية بقوة، ثم همست لوداد أن تنظر. كانت جثث ثلاثة رجال مطمورةً جزئياً تحت التراب، يبدو أن السيل قد حركها من أماكنَ أخرى فوصلت هناك وقد اختلطت بالطين.

لم تشأ الفتاتان لفت نظر الأم، لكن الأم ذاتها كانت منشغلة بما تراه على الجهة الأخرى من السيارة، والذي لم يكن مختلفاً عما تراه الفتاتان. وقبل أن يصل السائق وجهته، قالت الأم فجأة:

- عد قليلاً إلى الوراء.
عاد السائق قليلاً فقالت له الأم :
- هنا.. ثم فتحت الباب نازلةً، وتلاها الآخرون. لم تقل الأم شيئاً، تحركت إلى الأمام، مترين آخرين، توقفت، ثم عاودت المشي، كانت هناك صخرةٌ قريبة، توجهت المرأة ناحيتها، تجاوزتها ثم اختفت وراءها.

وجدتها نادية التي كانت أسرع إليها من الآخرين جالسةً بجانب جثة تتكئ على الصخرة،

كانـت الجثـة متعفنـة بالكامـل، لم تحركهـا السـيول مـن مكانهـا بسـبب حمايـة الصخـرة، كانـت الدمـاء يابسـة في منطقـة الصـدر مـا بـدا أنـه سـبب المـوت. كانـت المـرأة جالسـةً بهـدوء، تنظـر في الجثـة بتأمـل، قريبـةً منهـا دون أن تلقـي بـالاً للرائحـة، وقـف الآخـرون بعيديـن ينتظـرون منهـا أن تقـول شـيئاً، لكنهـا ظلـت عـلى حالهـا لعـشر دقائـق عـلى الأقـل، ثـم قالـت:

- هذا هو ابني، وعادت للصمت.

حفـر الرجـال حُفـراً سريعـة في الأرض الترابيـة الرطبـة، دفنـوا فيهـا الجثـث التـي لم يكـن لأي منهـا أيُّ بطاقـات هويـة، ثـم أخـذوا معهـم مـن جـاؤوا لأجلـه، وانطلقـوا لرحلـة العـودة في الظـلام. سـعداءَ بأنهـم وجـدوا الجثـة بسرعـة عـلى غـير المتوقـع.

في الليـل، صـار الهـواء خوفـاً، ونقـاط التفتيـش التـي كانـت توحـي بالشـؤم في النهـار، تصبـح صـورةً أخـرى عـن المـوت في الليـل. عـمّ الصمـت السـيارة وأطفـئ المذيـاع، لم تعـد الفتاتـان تتهامسـان، مـا الـذي يمكـن أن يقـال في لحظـة كتلـك؟ حـوصر مـن في السـيارة بفكـر واحـدة: مـا هـذه الحيـاة التـي نعيشـها؟ ربمـا لم تفكـر الأم بتلـك الفكـرة مـع الآخريـن، لقـد غاصـت في الظـلام والفـراغ، كانـت تريـد أن تنـسى، أن تنطفـئ مـرة واحـدة إلى الأبـد، ألاّ تشـعر بـالألم ولا الذنـب ولا الخـوف، ألا تكـون أُمّـاً مـرة أخـرى، ألا تكـون باختصـار.. انتحـت الأم بنفسـها جانبـاً ولم يُسـمع حتـى تنفسـها، قبـل أن يحملـوا جثـة ابنهـا إلى السـيارة، ركعـت عـلى الأرض وانخرطـت في بـكاء مريـر، ضربـت صدرهـا بكفيهـا وخربشـت وجههـا، بكـت الفتاتـان بجانبهـا، وبـكى رجـلٌ مـن الذيـن جـاؤوا مـن قريتهـا، قالـت ناديـة:

- لا شيء يطفئ ألماً كهذا غير الموت.

في اليـوم التـالي اسـتلمت وداد رسـالة مـن فتـاة اسـمها سـلمى، تقـول إن لديهـا عزيـزاً اختفـى منـذ فـترة، لا تعـرف أيـن ولا كيـف، ولا أحـدَ في الحقيقـة يعـرف، لكنهـا تعـرف أن السـبب قـد يكـون مـا يكتبـه. تقـول المرسـلة إن هـذا الشـخص نحيـلٌ بشـكل مقلـق، لـذا سـيموت لا محالـة إن تعـرض للتعذيـب أو التجويـع: هـل سـتتمكن مبادرتـك مـن إيجـاده؟

الوباء الذي يفرج عن المعتقلين!

في الصبـاح، كانـت هنـاك ثلاثـة أحـداث عـلى مواقـع التواصـل الاجتماعـي وفي تسـجيلات الواتسـاب، وهـي بالـضرورة سـتصل إلى يـد وسـمع وبـصر الأشـخاص العاديـين مـن مسـتخدمي التكنولوجيـا، حيـث أنـه ليـس "بالـضرورة" أن يكـون المـرء مطلعـاً عـلى منشـورات الصحـف الإلكترونيـة بأسـمائها الوطنيـة، وكـون الصحافـة الورقيـة قـد انقرضـت باكـراً مـن البلـد. كان الكهـول يكافحـون في سـبيل قـراءة الأخبـار عـلى شاشـات الهواتـف المحمولـة، الصغـيرة، والتـي لا يفهمـون تقنيتهـا. ومـن بـين هـؤلاء كان والـد سـلمى الـذي تحصّـل هاتفـاً ذكيـاً مـن وقـت قريـب، وكان ابنـه المراهـق، مرافقـاً دائمـاً، يقـدم الإرشـادات، ويقـرأ الإشـاعات، ويدلـه عـلى المواقـع، ويرسـل إليـه بالروابـط الإلكترونيـة للمجـلات والصحـف التـي اعتـاد الأب أن يقرأهـا في الزمـن الـذي كان قـادراً فيـه عـلى تحمّـل كلفتها. وقـد أذهـل ذلـك الأب لدرجـة أنـه كان يضحـك مـن السـعادة، وبـدأ يحلـم بالمولـد الكهربـائي، أو لـوح الطاقـة الشمسـية الـذي سـيجعل هاتفـه مضـاءً دومـاً. ومـع هـذا فقـد حلّـت أيـام كـره فيهـا الأب تلـك المعرفـة، كذلـك الأحـد الـذي افتتـح فيـه الأسـبوع بأحـداث ثلاثـة.

الخـبر الأول كان عـن اسـتحداث وظيفـة قـاضٍ "بنـكي"، مهمتـه أن يجـبر البنـوك تحـت قـوة السـلاح، بـأن تمنـح السـلطات كشـوفات كاملـة عـن الحسـابات البنكيـة التـي تبـدأ مـن سـتة أرقـام، والتـي تكـون بالعملـة الصعبـة. وحالمـا يعطـي البنـك تلـك الكشـوفات للقـاضي ذي "الجنبيـة" الكبـيرة، يقـرر القـاضي أن ذلـك الرجـل صاحـب الحسـاب هـو خائـن للوطـن، أو فاسـد، أو معتـد، أو ميـت. بالطبـع مـا لم يكـن واحـداً مـن السـلطات نفسـها. ثـم بعـد أن يصـدر حكمـه عليـه، يقـوم البنـك، أيضـاً تحـت قـوة الكلمـة المحميـة بالسـلاح بتحويـل تلـك الأمـوال إلى حسـابات أخـرى تملكهـا السـلطات.

أمـا الثـاني فهـو تسـجيل صـوتي يبـدأ مـن مدينـة عـلى سـاحل خليـج العـرب، ويتجـول حـول العـالم، لرجـل مـن خـارج البلـد، وآخـر مـن مدينـة غـير التـي تقـع عـلى السـاحل، يقـول فيـه الرجـل الـذي مـن خـارج البلـد، ولـه كل السـلطة بلهجتـه المفخّمـة البغيضـة، إن الإعلاميـات هـنَّ إمـا شراميـط

أو جاسوسات، وأنه في كلتا الحالتين يجب عليهنَّ الرحيل من هذه المدينة الوادعة التي تقع على الساحل الذهبي، والتي تخص الرجل الذي من خارج البلد، وتخص الآخر الذي من خارج المدينة. ثم يقترح عرضاً أن يخضعوا المعنية للتحقيق، فيقترح عليه الرجل الذي من خارج المدينة بأنه لا داعي للقلق بشأنها، وبأنه سيرسل ثلّةً من الشباب الأشداء "ليغتصبوها"، فتنشغل بأمر آخر غير الحديث على التلفزيون. يغضب الرجل من خارج البلد، ويقول بلهجته السميكة إنه لن يقبل قط أن تغتصب السيدة قبل أن تخضع للتحقيق في الشاليه "عنده" وأمامه، ويكرر بلهجة آمرة أن يحضروها قبلاً، ثم يغتصبوها بعد ذلك كيفما أرادوا، لكن البداية ستكون له هو. يجيبه الرجل من خارج المدينة: بالتأكيد!

وأخيراً حدثان متزامنان وقعا بنفس الدقيقة، لكن في مكانين مختلفين تماماً، وعبر فاعلين أعداء. في الحدث الأول في مدينة مزدحمة بالسكان العِطاش، قتل قناص خمسة أطفال بين الرابعة والعاشرة، كانوا يتحلقون حول إطار سيارة، وقد اخترقت الرصاصات رؤوس الأطفال بفارق زمني قدره عشرون ثانية لكل رصاصة، مما يدل على مهارة القناص التي لا مثيل لها. وفي الحدث الثاني في مدينة جبلية تجمد ساكنوها من البرد، قصفت طائرة "طائشة" سوقاً مزدحماً، وهرست في قصفها لحوم الباعة والمشترين مع الأبقار والأغنام والكلاب الشاردة. التقط والد سلمى صورةً لرجل كانت ساق بقرة قد التحمت بأحشائه. أفاد الخبر بأنه كان تصرفاً "وفق إحداثيات صحيحة مئة في المئة بأن السوق هو ثكنة عسكرية". وبجانب الخبر شاهد والد سلمى – مصعوقاً - وجهاً أصفرَ صغيراً يفتح عينيه بدهشة.

يسأل المراهق والده باستغراب حقيقي، بأن ما الفائدة التي يجنيها المتقاتلون من قنص الأطفال الصغار؟ ولماذا يبدو الجميع متأثراً هذه المرة؟ فكل يوم يقنص المسلحون "الميليشاويون" عشرات الأطفال على الحدود الفاصلة؟

لا يرد عليه الأب، لأنه لا إجابة لديه، فيفكر الفتى، ويبتسم دون قصد:

- ربما لأنه القناص الفائز بأسرع تتابع للرصاصات.

قبيل الظهر، استلمت وداد رسالة طويلة شيئاً ما، ومكتوبة بلغة جميلة حية ومدهشة. تقول الرسالة المرسلة من فتاة باسم سلمى، إنها تريد أن تكون جزءاً من مبادرة البحث عن الجثث والمفقودين، وأن سببها شخصي للغاية، لديها عزيز اختفى منذ فترة، لا تعرف أين، ولا كيف؟ ولا أحد في الحقيقة يعرف، لكنها تعرف أن السبب قد يكون ما يكتبه. فهو يكتب عن أي شيء دون مراعاة لمشاعر الجهات المتصارعة. تقول المرسلة، سلمى، إن هذا الشخص أحمق

وقصير النظر، علاوةً على أنه نحيل بشكل مقلق، لذا سيموت لا محالة إن تعرض للتعذيب أو التجويع. وأضافت أنها لا تعرف كيف تشتغل هذه المبادرة، لكنها تريد المشاركة. وأضافت بصراحة أن لا متسع من المال لديها، لكن لديها الإرادة التي ربما ستكون كافية.

امتلأت وداد تأثراً بالرسالة، كانت قد ابتدأت مبادرتها التي التحق فيها كثيرون، ليس بالضرورة من مجاميع كتاب لكل أسبوع وأغنية لكل يوم، لكن أشخاصاً آخرين أرادوا أن يعيدوا جثث من فقدوهم إلى قراهم، ليدفنوهم هناك. وداد التي كانت جاهلةً حتى بجغرافيا البلد نفسها، بأسماء المدن والقرى، بالطرقات والمنحدرات، وجدت نفسها تكافح جهلها، وتصرف وقتاً أكثر مما توقعت على هذا الجانب.

كانت نادية تجلس بجانب وداد حين وصلتها رسالة سلمى، قرأت وداد الرسالة بصوت عال، فنصحتها نادية بأن تطلب مقابلتها لأن هذا قد يكون فخاً. قالت لها: اطلبي منها أن تقابلنا، سنتعرف عليها، وعلى حبيبها المختفي! نفّذت وداد الاقتراح، وبعثت لسلمى تطلب منها أن تقابلها في المقهى نفسه الذي قابلت فيه علي تلك الليلة البائسة، حين هجم المسلحون حرّاس الفضيلة على المكان. بالنسبة لوداد فهذا هو أفضل الأماكن وأكثرها أماناً، وبالنسبة لنادية، قلق جديد تخشى فيه أن يراها أخوها ويفتعل مشكلةً، وبالنسبة لسلمى، هذا هو المكان الذي لن تطأه قدماها مرةً أخرى. الحديقة الهندية.. اقترحت سلمى بحسم.

في العصرية، عبرت الفتاتان بعجوز الحديقة على كرسيه، كان مشغولاً بمذياعه، بعثت وداد برسالة للمدعوة سلمى التي تبحث عن حبيب اختفى، وأعلمتها أنها بانتظارها في الحديقة بجانب بائع غزل البنات، ردت عليها سلمى بأنها قادمة إليها.

السماء التي كانت صافية، كانت باردةً أيضاً، والأشجار التي تزين الحديقة تساقطت أوراقها، وأزهار الجهنمية الحمراء التي تسلقت السور المقابل للبوابة كانت ذابلةً، فتاة تجلس مقابل شاب ارتدت "جاكيتاً" من الجينز، وفتاة تسير وحيدةً، لكنها تحمل وردة حمراء. غير بعيد كانت أصوات أغنية محلية حزينة يتردد صداها، وعبر سرب طيور السماء، "يبدو أنها تهاجر".

فكرت سلمى، وتأنت في ذهابها لتقابل الفتاتين، وهي لا تعرف بعد من ستقابل، ولا ماذا ستقول، لم تكن لديها ذرة ثقة في نفسها، ولم تعرف إن كانت ستؤخذ على محمل الجد أم لا.

بجانب عربة غزل البنات والبائع الشاب، وقفت فتاتان كلتاهما ترتديان النقاب مثل سلمى، إحداهما تبدو أغنى من الأخرى، يمكن للمرء أن يستنتج ذلك من شكل عبائتها، ومن نعومة

يديها اللتين تلوح بهما وهي تتحدث. لم تكن سلمى تتوقعهما منقبتين، لذا أبقت احتمال أنهما الفتاتان الخطأ، وربما التي ستعود بالجثث في مكان آخر لوحدها، لكنها حين اقتربت وتلاقت الأعين، صار واضحاً أن زوجي عيون هما لعائدة بالجثث، وزوجين للباحثة عن الحبيب المفقود.

رفعت الفتيات نقاباتهنَّ تحت شجرة منعزلة، وخلال حديث سلمى عن علي، اتضحت حقيقتان:

- هذا اللقاء الثاني لسلمى ونادية. لم تتعرف سلمى على العينين الباردتين، لكن نادية تذكرت الوجه المتعب.

- علي كان شخصاً مشتركاً، فهو الحبيب النذل، وأيضاً القريب الذي يكتب عن الجثث الملقاة في براميل الزبالة.

لم تصب الدهشة صاحبات الأمر، لكنها أصابت وداد، التي استدارت لنادية، وهي تبلغها كأنما باعتذار: على فكرة، لم أجد وقتاً لأخبرك، لكني عرفت اليوم أنهم سيفرجون عن معتقلين بسبب تفشي الوباء في السجون، وهذا الأمر اعتمدته كافة السلطات في كافة الأشطار.

هنا أشرق الوجهان الكابيان، ودق قلب سلمى، وهي تراقب سرباً آخر من الطيور المهاجرة، وتعجبت كيف يمكن لجزء من الثانية أن يكون كافياً لحلم يقظة يتّسع لحياة. كان علي هناك وكان حياً وكان آسفاً، وكانت هي قد وجدت معنى لحياتها.

في المساء، كانت سلمى تتصفح الخبر الذي يقول إن السلطات المختلفة في الأشطار المتجاورة، قررت الإفراج عن بعض من السجناء بسبب موجة الوباء التي ضربت السجون والمعتقلات، وقتلت من يفترض بهم أن يظلوا أحياء. يقول الخبر: إن كان لديك سجين بجنحة بسيطة أو معتقل بالخطأ أو بتهمة لا وجود لها في العالم، فيجب عليك أن تبدأ بمراجعة الكشوفات المنشورة على الموقع التالي، قد يحالفك الحظ وتجد اسم قريبك وتخرجه بعد أن تدفع كفالة.

في منتصف الليل، شوقي الذي كان يهتم بنظافة الحمام المشترك حين كان علي يشاركه الغرفة، يتسلم رسالة من سلمى تخبره أنها قد وجدت اسم علي في كشوفات المفرج عنهم، وأنها تحتاج لمساعدته. ارتعشت يداه، وقفز من مكانه شاكراً الوباء ومقبّلاً الهاتف. وغير بعيد،

خلف هضبة واطئة، بكت سلمى من الغضب والسعادة، بينما جلس أخوها عند قدميها ينتظرها أن تروي له الحكاية التي جعلت منها غريبة تماماً:

- هذه المرة لن يفوتني أي تفصيل!

الإفراج عن مومياء

يجوب شقيق سلمى مع شوقي المكاتب والأروقة في المؤسسات بحثاً عن الموقع الصحيح، الذي من خلاله سيدفع كفالة علي، وسيخرجه من المعتقل الذي هو فيه.

قال لها شوقي إنه لا مفر من الاتصال بعائلته في القرية.

حشدت الأم في القرية أبناءها وبناتها، تحصّلت على أكثر من المطلوب، تعاود الاتصال بشوقي كل يوم:

- اخرجه وضعه في السيارة ثم أعده إلي، ولك عندي تكاليف ما تعمل، عدني بذلك يا ولدي.

- أعدك يا خالة.

رافقت سلمى الشابين في رحلاتهما، لم تدرْ الكثير من الحوارات في المنزل، عرف الأب ما الذي يعمله أولاده دون حاجته لسؤالهم، ومنحتهما الأم صمتها المهيب. كان الأخ متفانياً محباً ودوداً حتى مع الذين كذبوا عليهم لعشرات المرات في المكاتب الحكومية، لكنه اتفق مع سلمى ما إن يرى علي، حتى يلكمه على وجهه جزاء ما فعله بها، ووعدته أنها ما إن تتأكد أنه خارج المعتقل حتى تنساه إلى غير رجعة.

كانت نادية لتستبدل أخاها، وقطعة من جسدها بأخ مثل الذي لدى سلمى.

أما شوقي فهو هادئ سهل المراس، يسترق النظرات إلى سلمى كلما أتيحت له الفرصة، ويشعر تجاهها بالأسى:

- كيف لها أن تكون الغامقة، ويكون أخوها فاتح اللون.. نصيب. يظلّ يفكر.

في اليوم العاشر حُدّد الزمان والمكان، قال رجل مكفهر الوجه قذر الهيئة، تختبئ أكوام من الوسخ تحت أظافره:

- سيكون هناك طابور لاستلام المعتقلين، احضروا باكراً. كان صوته فظّاً لا إنسانياً، نظرت إليه سلمى باحتقار.

حاول الشابان إقناع سلمى بأن لا داعي لأن تحضر معهم في الغد، ستكون هناك فوضى وقد يحدث عنف، لكنها طمأنتهم بأن المسلحين أقوى من كل الغوغاء، لذا لن يكون هناك شي.

في السادسة صباحاً، انطلق الشقيقان في رحلة مدتها ساعة كاملة، وكان شوقي قد ذهب بمفرده ليلتقي بهم هناك، وتقابل الفريقان أمام الموقع المفترض بهم أن يستلموا علي عنده. أمام مبنًى حجريّ قبيح مؤلفٍ من طابقين، يقف في منطقة شبه فارغة، قاحلة وترابية، يحيط به سور حجري مرتفع وبوابة هائلة، لا تتناسب وشكل وحجم المبنى، وبُعيد عشرة أمتار منه، وقف تجمّع من الناس، أغلبهم رجال بانتظار أن تفتح البوابة، أو أن يقول أحدهم شيئاً، وقريباً من البوابة وقف رجلان مسلحان يرتديان "الزنة" التي كانت في زمن ما بيضاء، وعلى أقدامهما صنادل جلدية تبدو غالية الثمن، لكن القدمين ذاتهما مغبرتان يابستان. يغطي المسلحان وجهيهما بشالات ثقيلة، ولا تستطيع سلمى الوصول لنظرات عيونهما كونهما أبعد من مجال بصرها.

استمر الحشد بالهمهمة، كانت سلمى تسمع الحوارات:

- سجناء المبنى هذا فقط من سيعودون إلى المنازل، أما البقية فقد كان هناك اتفاقات بأن يخرجوهم من السجون على شرط أن يذهبوا للقتال.

- ربما سجناء هذا المكان هم المختطفون فقط، الذين لا تُهم عليهم.

- في الشطر الآخر لا أحد يخرج سليماً، هل سمعت كيف اغتصبوا الرجال؟ أولئك الملاعين من الدول الغنية يغتصبون أي شيء يتحرك، من الكلاب إلى الرجال.

- الحال من بعضه يا رجل، هنا لا يغتصبونهم، لكنهم يبعثون بهم إلى الموت رأساً، هل رأيت أحدهم خرج حياً من قبل؟!

- موت في كل الحالات، إنهم يختطفون البنات الآن.

- يقولون أن هذا المبنى فقط محطة، لكن السجون الحقيقية مخفية، ولا أحد يعرف عنها شيئاً، مقرات تحت الأرض يا رجل.

- إن أمي تعد المنزل منذ الأمس، لقد أعدت طبخاً لوليمة، وقالت إنها ستدعو كل أطفال الحارة، إن أخي مخطوف منذ أربعة أعوام، كان الجميع يعتقد أنهم سيقومون بخطفي أنا، ولا أحد يعرف لماذا خطفوه هو، كان شاباً صغيراً حينها.

بينما ظل أبطالنا الثلاثة صامتين، كان قلب سلمى يدق كما لو كان يحتج، ويداها ترتجفان، وشوقي يشعر بقلق بالغ، يكاد يجزم أن هذا، كل هذا، لن يكون على ما يرام، أما شقيق سلمى، فقد وقف هناك وكأنه لا علاقة له بما يجري.

شاب فتي، بهيُّ الطلعة جميل، يكاد يبدو سعيداً، يرتعد قليلاً بسبب البرد، فيفرك ساعديه ويعود للنظر حوله، ويهز رأسه إذا ما التقت عيناه بعيني آخر.

فُتحت البوابة، خرج رجل قصير بدين، يحمل بيده ورقة، وباليد الأخرى مايكروفون، وأحاط به رجلان مسلحان. وعلى السور ظهر فجأةً رجال مسلحون ومقنّعون، صوبوا فوهات أسلحتهم نحو الجمهور في الخارج، تنحنح الرجل بمايكروفونه ثم قال:

- سأقرأ الأسماء التي سيتم استلامها اليوم، البقية يجب أن يعودوا غداً في الوقت نفسه، لا نريد أن نسمع أي اعتراض، وإلا ستنامون في أماكنهم إن لم يكن في المقبرة.

سرت الهمهمات مرةً ثانية، وبدأ شوقي يفرك يديه بعصبية بينما لم تتحرك سلمى، ولم تبدِ أي ردة فعل، تنحنح الرجل مرة أخرى، فأخرست الهمهمات وساد الصمت. وحال أن بدأ الرجل القراءة، كان ذوو الرجل المختار اسمه يحتفلون، بأن يحمدوا الله ويصفقون بأيديهم، جاء دور علي في الرقم خمسة، قفز شقيق سلمى، وأمسكها من كتفيها، ارتعشت هي وضحكت وهي تكاد تبكي، بينما ظل شوقي على توتره البالغ.

أُمِر الجمهور الذي كان مجيئه عبثاً بالمغادرة فوراً تحت تهديد السلاح، رفعت امرأة عجوز يديها ودعت عليهم بالهلاك، وهي تبكي، وبدأ الرجل الذي كان يتحدث عن أمه بلكم صدره بعنف، كان يمشي مبتعداً، ويلطم صدره بكل قوة، بينما يحاول رجل آخر إيقافه.

ظلت سلمى ملتفتةً إلى الوراء تشاهد الحشد وهو يغادر، وعادت إلى حلمها الأبدي: بأن تكون غير مرئية، فتفعل كل شيء تستطيعه لأجل نفسها ولأجل البشر. ستذهب لتصفع الرجل بمايكروفونه، وتنشر الرعب في قلوب المسلحين الهمجيين، ثم تطلق سراح كل الذين في الداخل. لكنها للأسف مرئية وأكثر بكثير مما تريد.

أُخرِج رقم واحد، رجل ربما أربعيني، لم تستطع سلمى القول، كان هزيلاً جداً، يمسك بخاصرته كما لو كان أحدهم لكمه للتو، يرتدي ملابس السجن الزرقاء، وهي تبدو قذرةً للغاية، كان يبحث عن ذويه وهم أمامه مباشرة، زائغ العينين، أحاط به رجلان يسندانه، والسعادة تغمر وجهيهما، بينما تأنّت المرأة في القدوم إليه ولمسه، اتجهوا نحو سيارة تتنظر قريباً منهم استقلوها ومضوا، وسلمى تودعهم بنظرات متحسّرة.

رقم اثنين لم يكن مختلفاً عن رقم واحد، عدا عن أنه كان بانتظاره رجل واحد شائب، ولم يكن يمسك بخاصرته، بل كان يعرج ويمشي بصعوبة بالغة، ولم تكن هناك سيارة بانتظارهما، احتار العجوز، وتلفّت يميناً ويساراً وهو يسنده، قفز شقيق سلمى من مكانه إليهما، واتفق مع العجوز بأنه سيذهب إلى الشارع الرئيسي عله يجد سيارة أجرة، وبلهجة متواطئة سأله محاولاً ألا يسمع الأعرج الحوار:

- هل لديك مال؟

هز العجوز رأسه، فانطلق الشاب، وبعد خمس دقائق عاد يجلس في المقعد الأمامي لسيارة بيضاء متربة. ابتسمت سلمى فخورة..

- مغادرين المكان.

رقم ثلاثة مثل واحد واثنين، وأسوأ قليلاً، لأنه تهاوى بعد خطوتين فهرع ذووه إليه، ورجحت سلمى أنه كان محمولاً، لأن رجالاً تجمعوا بجانب البوابة قبل أن يظهر رقم أربعة واقفاً يترنح.

جاء دور علي، انقبض قلب سلمى وظل منكمشاً، تتنفس بصعوبة، ويقشعر جسدها بسبب البرد وبسبب الخوف، أخذ علي وقتاً أطول من الآخرين، وكان الرجال بجانب البوابة يهمسون لبعضهم، مضت دقائق وبدا أن شوقي قد فقد صبره على الاحتمال، فبدأ يدق الأرض بقدميه ويتحرك ذهاباً وجيئة، أخيراً انفرط عقد المسلحين أمام البوابة وخرج رجلان يحملان ما يبدو أنها بطانية في داخلها جسد، تقدم الرجلان وصرخ أحدهما:

- أين هم أهل الرقم خمسة؟

تقدم شقيق سلمى مسرعاً، لأن شوقي وسلمى كانا قد تجمدا مكانهما، وضع الرجلان البطانية - الحمالة على الأرض بحرص، ثم عادا أدراجهما إلى البوابة، واختفيا.

في البطانية استلقت مومياء حية، جسد أُفرغ مما فيه، ولم يتبق غير الجلد يستر العظم والأوردة، غطّى الرأس الكبير شعر خفيف مضت فترة طويلة منذ آخر مرة حلق فيها، نتأت عظام الوجنتين بشكل مؤذٍ، وبدا شكل الأنف ضخماً وغير متسق، غارت العينان إلى الداخل، وكانتا صغيرتين بأهداب طويلة، أذناه متسختان من الداخل، وأصابعه معقوفة بشكل غريب.

تفحص شوقي المومياء، نظر إليها ملياً كأنما ليتأكد أن هذا علي، ثم ركع على ركبتيه بجانب المومياء، مد يده نحو الوجه العظمي، فلاحت شبه ابتسامة، والتمعت العينان الغائرتان، وهما تدوران على الوجوه، توقفتا لوهلة على سلمى، ثم انتقلتا إلى الشقيق الذي انطلق لإحضار سيارة أجرة، فلم يبادل علي النظرات.

حمل الشابان المومياء باتجاه السيارة، واحتارا كيف يمكن وضع الجسد في السيارة الصغيرة، لذا اقترب شوقي من علي، وسأله بلطف إن كان يستطيع الجلوس، نظر إليه علي قليلاً ثم أومأ برأسه، لذا ساعدوه أولاً على الجلوس وهو ما زال في الخارج، وحين لاحظوا أنه غير مشلول بعد، لكنه لا يستطيع حمل نفسه، قرروا إسناده في الداخل.

سلمى التي لم تقل شيئاً ولم تدلِ باقتراح، جلست في المقعد الأول بجانب السائق، وقفت الغصة في حلقها، لم تبكِ بعد، لم تصرخ طالبة الهواء لأنها تموت، لم تضرب برأسها حتى تهشمه، لم تعد إلى بوابة السجن فتهد عليهم السور أو يقتلونها دون ذلك، لم تفعل أياً من ذلك.

فقط فكرت به..

اتفق الشابان أنهم سيذهبون فوراً إلى المستشفى، قد يرأف به الأطباء ويسمحون له بالدخول، سيعرفون من عينيه أنه لا يحمل الفيروس، لكنه ربما يحمل أشياء أخرى، سألا سلمى إن كانت تريد المرافقة أو العودة إلى المنزل، التفتت من الأمام وهزت رأسها بالإيجاب.

فقد علي وعيه قبل أن يصل إلى المستشفى، فأعيد حمله بالبطانية التي أُخرج بها من البوابة، عرضه الشابان على الأطباء في ممر الطوارئ، قال لهم شقيق سلمى:

- طازج! من المعتقل إليكم فوراً!

نظر طبيب إلى الهيكل العظمي فاقد الوعي وهز رأسه يائساً:

- أنتم تعرفون أنه ٩٩ في المئة ميت؟
في الطريق إلى المنزل، لم تبكِ سلمى كما هو متوقع، عادت هادئةً، وسألت والدها إن كانت دار جده في القرية ما زالت قابلةً للسكن. عرف الأب إلى أين تمضي في سؤالها فأومأ برأسه إيجاباً، وبالهدوء ذاته واصلت حديثها: هل يمكن أن نجرب لمدة شهر واحد؟ هذه المرة لن أقول لنذهب إلى غير رجعة، فقط شهر واحد أنا وأنت، ثم لتقرر بعدها.. وبشأن تكاليف الرحلة سأبيع أقراطي.

- بالطبع، لمَ لا؟ سنبيع أثاثنا ونرحل من هذه المدينة نهائياً، سنشتري أغناماً ونستعيد أرض جدي.

حينها بكت سلمى

جنود بالأمر!

في ثلاث السنوات الماضية، كانت أم نادية تحصي أسماء الشبان الذين التحقوا بالقتال، تحصيهم من جاراتها، من أقربائها في القرى، تحصيهم من نميمة بائعي الخضار، من حفلات الزفاف التي ترتادها وتبكي فيها الأمهات الملتاعات، من بيوت العزاء التي تواظب على الظهور فيها، وكل ليلة لديها حكاية عن شاب، عن فقد، عن جثة في الأماكن البعيدة التي لا تعرفها هي، وفي الأغلب لا تعرفها الأمهات.

فمثلاً هناك نادر، الذي تعرفه نادية وقد نشأت معه في الحارة ذاتها، تصر أمه بأن الميليشيا أغوته، ويصر الخضري بأنه ذهب لوحده. وهناك شهاب، ابن جارتهم في الحارة الجديدة، تعرفه نادية أيضاً، وتعرف صوته الحاد ووجهه الأسمر، وتتذكر بنطاله الفضفاض دوماً، تقول أمه إن أبناء خالته استدعوه من مدينة أخرى فهرب دون أن يقول وداعاً، تبكي الأم وتقول إنه لا يتصل بها ولا أبناء خالته يفعلون، وأن أختها تقول إنهم يحاربون أعداء الدين، وهي تخشى على أولادها الآخرين من هجمة الميليشيا إن عرفوا أن واحداً منهم يقاتل ضدهم.

"حالياً نادر يقاتل شهاب، يا للعالم العجيب"! كان هذا مضحكاً بالنسبة لنادية قبل أن تعود بالجثة.

لكن الحكايات تغيرت مؤخراً، ولم تعد الشكوى أن فلاناً هرب لوحده لهذه الجبهة أو تلك، بل أن رجالاً مسلحين، مخيفين جداً، قد اقتحموا المنازل باحثين عمن يستطيع القتال، وتركوا رسالة بسيطة: سينضم للقتال أو سيقتل، وإن فرّ، فها هنَّ النساء ومصيرهنَّ في أيدينا، وبعد كلمة "أيدينا" هناك الغمزة التي نعرف جميعاً معناها.

وتلك الحكاية ظلت حكاية، إلى اليوم الذي عاد فيه الفتى مذعوراً، مصفر الوجه، كان يحوم في المنزل ولم يقل ما الذي يحدث، فقط طلب من الجميع ألا يفتحوا الباب لأي زائر كان،

ظلت الأم تتوسل إليه أن يخبرها لكنه لم يفعل، وفي اليوم التالي حين لم يخرج من غرفته، ذهبت الأم إلى سوق الخضار تتبع النميمة وما الذي حدث في الحارة وهي لا تعرفه، وكانت تعتقد أن ابنها قد دخل في شجار مع أحدهم.

تململ الخضري حين سألته، للمرة الأولى ترى في نظرته الشك، بدا خائفاً منها، مسحت المرأة بكفيها البضّين، وأظافرها المحنّاة الترابَ عن البطاطا، ثم اقتربت منه وخمارها يغطي باقات الكزبرة والبقدونس، قالت له:

- أنا لا أخفي عليك شيئاً، ابني منذ الأمس مذعور كفأر في الغرفة، هناك ما حدث ولا يخبرني، اعتقدت أنك تعرف شيئاً، هل تشاجر مع أحد؟

تنهد الرجل بعد أن امتص رائحة المرأة، شعر بالراحة وفكر أنه بأمان، كان الجميع يتوجس من الجميع في تلك المدينة البوليسية، ولم يعد يثق حتى بزبونته الدائمة ذات رائحة البخور.

- يا أم جلال، كيف لا تعرفين، بالأمس جاؤوا، رأيناهم بأم أعيننا - قال الرجل هامساً ومقترباً هو منها، بينما ركبته تتكئ على كومة البصل الأحمر- لقد هاجموا عمارة الحاج أبو أحمد، وأخذوا ثلاثة: رامي، والأخوين نصار ويوسف، رموهما في "الطقم"، وكان خالد ماراً بالصدفة في الشارع فأخذوه هو الآخر.
- خالد؟! شهقت الأم ولطمت صدرها.

- نعم خالد، عويل أمه كان ملء الحارة بالأمس - أكد الخضري - وجلال ابنك مع آخرين اختبؤوا في الزقاق الذي خلف العمارة الحمراء، كانوا أذكى من خالد المسكين، إنهم قادمون من أجل الجميع يا أم جلال.. هز الرجل رأسه يائساً.

جن جنون المرأة، تركت الحزم التي اشترتها وغادرت راكضةً، كان الرجل يناديها متسائلاً إن كانت ستأخذ ما اشترت، لكنها لم تعد تسمع ولا ترى سوى المصيبة القادمة، المصيبة التي كانت تصيب كل العائلات، لكنها لم تفكر يوماً أنها ستصيبها هي.

حاول الجميع تهدئتها، لكنها كانت قد قررت، وأيّاً يكن الذي سيقولونه، لم يعد يعبر قنواتها السمعية:

- سنعود كلنا إلى القرية! حتى تنتهي الحرب.

الجميع يصرخ: "مدرستي"، "ومن أخبرك أن الحرب ستنتهي"، "لن أغادر ولو قتلتني"، "عملي"، "تعرفين أننا لن نستطيع الحياة في القرية"...

لم يعد مهماً ما سيقال، اقتربت البنت الكبرى منها، احتضنتها ثم أجلستها. جلست المرأة وهي تلطم خديها وركبتيها:

- ما زلت ترتدين عباءتك، ما رأيك لو تزورين جيراننا وترين بنفسك أم رامي أو أم نصار أو أم خالد؟ استعلمي عما جرى وبعدها سنقرر.

في منزل أم نصار، جلست أم نادية كما لو كانت في عزاء، كانت الأم نائمةً على الأرض في غرفة المعيشة، وبجانبها اثنتين من فتياتها، وزوجة نصار الشابة بصبغة شعرها الشقراء وعينيها العسليتين الدامعتين، تزوجت منذ أشهر وسكنت في منزل العائلة المكوّن من شقتين.

لم تعرف الأم ما الذي يجب أن تقوله في موقف كهذا، ولا كيف تقول ما تريد قوله. جلست على الأرض قريباً من قدمي الأم المستلقية على جانبها، دلكت القدمين المخبأتين تحت بطانية منقوش عليها نمر ضخم، ثم استجمعت شجاعتها لتسأل عما حدث، حدثتها كبرى البنات، بما أن الأم ملتزمةٌ الصمت والنشيج:

- لقد جاءت قبل أيام إحدى النساء لزيارتنا، لم نكن نعرفها لكننا استقبلناها، ظلت تسأل عن عائلتنا من أين نحن؟ ولأي قبيلة ننتمي؟ وأمي ترد عليها بكل صدق، وحين عرفت أن لدينا أربعة شبان في المنزل، تغيرت نبرتها وأصبحت متعجرفة، كانت تخطب فينا كيف أن المقاتلين في سبيل الله يموتون على الجبهات، وأنهم يدافعون عن أرضنا وعرضنا، وتعجبت كيف لا يساهم شباب البيت في القتال. قالت لها أمي إن أبناءها لن يحاربوا أحداً وهم ليسوا بمقاتلين، هددتها المرأة قائلة: إن كنت تريدين الستر لبناتك، فالأفضل أن يدافع الرجال عن شرفهنَّ في الجبهات. بالأمس كان نصار ويوسف في المنزل لأجل الغداء، بينما أبي والبقية في الورشة يعملون، فوجئنا برجال مسلحين يقتحمون الباب، دون أن ينتظرونا لنخطي شعرنا أو نلبس عباءاتنا، اختبأنا في الغرف بينما بقيت أمي معهم، وضعوا الأسلحة على رأسيهما وهددوهما بأنهم سيأخذوننا أيضاً إن أحدثا أية ضوضاء، انصاعا وذهبا معهم. توقفت الفتاة الرقيقة لتبكي.

- اهربي بابنك يا أم جلال، أنا ضيعت أولادي، لا تضيعي أنت ابنك الوحيد.. همست المرأة المستلقية، كأنما من عالم آخر.
مترات أو ثلاثة يفصلان بابي العمارتين، لكن الأم ضلت سبيلها ووجدت نفسها في الشارع

العام خلف الحارة، كانت لا تلوي على شيء وقد سيطر الرعب على قلبها، توقفت بجانب ورشة النجارة في ناصية الحارة تراقب الشارع والسيارات المستعجلة، وبينما تقف، عبرت ناقلات الجند المكشوفة من أمامها، فتجمدت تشاهد العربات الطويلة، تذكرت أنها في الماضي شاهدت ناقلات الجند، كانوا يرتدون الأخضر، وكانوا أكبر سناً قليلاً ويبتسمون، وقد لوحت لهم فبادلوها الابتسام. أما هذه العربات، فكانت تقل أطفالاً في الأغلب، مغبرين وناحلين، يرتدون ملابسهم العادية، بعضهم ألقى لها بنظرة تشبه التوسل وآخر بنظرات العداء، على طرف العربة تشبث بعمود العربة صبيان ربما في الرابعة عشرة من عمرهما، أحدهما يرتدي تيشيرتاً بنياً، وبنطالاً رياضياً أزرقاً ممزقاً في أطرافه، والآخر يرتدي "زنة" كانت بيضاء في يوم ما، وقد شد خصره بحزام عريض، والاثنان ينتعلان صنادل مطاطية. ومباشرة بعد ناقلتي الجند المكشوفتين، عبرت مدرعتان مخيفتان لم تعرف الأم ما هي مهمتهما.

دارت الأرض بالأم فعادت أدراجها إلى المنزل، كان الجميع مذعوراً وقد تشكلت التحالفات، طمأن الأب فتياته أنه لن يغادر لأنه سيفقد عمله، وهو على عكس الملايين محظوظٌ لأنه لم يفقد عمله حتى الآن، لكن الفتيات يعرفن أن أمهنَّ إذا قررت فلن يكون للأب أي صوت في القضية.

وقفت المرأة عند الباب، مرتاعة خائرة القوى وأعلنت:

- ستبقى ندى - الأخت الكبيرة - وفاطمة – الصغرى - وأبوهما، هو حتى لا نموت جوعاً، وفاطمة حتى تكمل امتحاناتها وندى حتى ترعاهما والجدة، ونحن سنغادر غداً، وسنستقر في دار الجدة، ستتصل الآن - مشيرةً إلى الأب - بصديقك صاحب الشاحنة، وسنسافر كلنا بسيارة الأجرة التي تسافر فيها عائلة ابن عمك. لا يقول أحدكم شيئاً، لديّ ابن واحد ولن يموت على الجبهة، ولدي بنات لن يغتصبهن أحد، إن جاؤوا بحثاً عنه قل لهم أنه يدرس في الهند.

لم يقل أحد شيئاً، الجميع يعي أن ما قالته الحقيقة، وكانت نادية تعرف أكثر من الآخرين ماذا يعني الموت في الجبهات وماذا تعني الأمهات المكلومات: لقد رأت بأم عينيها.

تعرف نادية أنه لا مجال للثورة ولا للبكاء، فلن تغير أية قوة في الكون ما قررته أمها، وقبل أن ترسل رسالتها النصية لصديقتها وداد، تحركت باتجاه غرفة الجدة، جلست بجانب سريرها وسألتها:

- سنعود للقرية يا جدة، والآن أخبريني، ما الذي حدث لابنة عمي ماجدة؟ لا تكذبي علي، لأني سأعرف هناك.

فستان مزركش يطفو

ربما آن الأوان لنعرف ما قصة ماجدة؟ ومثلما بدأنا بها سنختم بها!

في الفجر، تغادر ماجدة مع صديقاتها الفتيات لأعمال الأرض، يتنافسن لكي يبدون أكثر أنوثة، أكثر إنجازاً للمهمات. وتلك الرحلات كانت مليئةً بالنميمة والحكايات. لقد استمعتْ منذ كانت طفلةً للقصص التي تحكي عن الحب والعلاقات المحرمة، عن المثليات اللواتي اكتفين ببعضهنَّ في ظل غياب طويل للأزواج، عرفت تفاصيل العلاقات المحرمة التي روتها فتيات مراهقات نقلاً عن فتيات أكبر سناً أو عن متزوجات نقل إليهنَّ أزواجهنَّ نميمة شبان آخرين. وكانت المواقع التي تتم فيها تلك العلاقات معروفةً لكل المراهقين والمراهقات، وللكبار أيضاً الذين كان سبق لهم أن عاشوا إما العلاقات ذاتها، أو استمعوا للنميمة ذاتها عن آخرين. وقد احتفظت الأجيال بأساطير تناقلتها عن تلك العلاقات، ولم تكن تلك القصص مرفوضةً دائماً أو مستهجنة. لقد سمعت عن فتاة حبلت بفعل الزنا، كبرت أحشاؤها، وظلت تحاول إخراج ما فيها دون استطاعة، ثم انتهى الأمر بقتل نفسها قبل أن يقتلها أهلها. لكن الفتيات يتحدثن عنها كأنها بطلة وبابتسامة حسيرة.

ثم الفتاة الأخرى التي كان الشبان يتعاركون بسببها في كل الأماكن، مصلوبين تحت الشمس اللاهبة بانتظار رؤيتها، وهي ذاتها التي وعدتهم كلهم بالزواج وأرتهم جزءاً من مفاتنها: شيئاً من ثدي مراهقة منتصب، رائحة شعر دست فيه عطر أمها في الصباح، جزءاً من ساق رفيعة انتشرت عليها شعيرات ناعمة طويلة لا تزيلها فتيات القرى البسيطات. تلك المفاتن لم تكن لتسمح لأحد بلمسها، لكنها تعدهم بالحصول عليها ما إن تكون بيوتهم جاهزة وجيوبهم ممتلئة، فيصيب الشبانَ المساكين جنونٌ مستعر، يتركون مدارسهم وعائلاتهم، ويتشاجرون مع أصدقائهم، ثم يتركون لها وعداً ويغادرون إلى المدينة مسرعين، يعملون في مجال البناء، فتحترق بشرتهم تحت أشعة الشمس، وتنسحق ظهروهم تحت ثقل الأحجار، وتتخشب كفوفهم الشابة بفعل الجفاف الذي يسببه الأسمنت، ثم انظري من فاز بها يا

ماجدة؟ ابن الشيخ الذي لا قلق لديه، فوالده بنى له بيتاً ومنحه أرضاً وماشية، واشترى لها ذهباً أكثر من أي واحدة أخرى، وكان هذا هدفها منذ البداية، لكنها استمتعت باللعب على الأبرياء المغفلين الذين لاكوا حسرتهم بعيداً في المدينة.

كل الفتيات يقررن من سيكون شريكهنَّ في وقت مبكر من حياتهنَّ، لكن ماجدة كانت أقل حظاً، ولم تقرر بعد من سيكون شريكها ولم تقرر لها الفتيات. فقد تنقلن بين الخيارات، ولم تكن تلك إشارة جيدة على كل حال، لذا بدأت ماجدة بالتفكير بجدية في الموضوع منذ شاهدت الفتى المتعلم في المدينة. كانت تستظل تحت شجرة مع صديقتين لها، وهنَّ عائدات من رحلة التحطيب، ارتقى الشاب العائد من الجامعة صعوداً من الوادي نحو منزله في أعلى الجبل، وفي طريقه عبر بالفتيات، كان نظيفاً وأنيقاً وصافي البشرة مقارنة مع شبان القرية، لم ينظر في عيون الفتيات الضاحكات، فقط ألقى عليهن السلام، وكان قد أعد في يده علبة من الشوكولاته، أخرجها حين عبر بجانبهنَّ ومدها باتجاههنَّ دون أن يشير إلى واحدة.

ترددت الفتيات وتضاحكن، ثم أخيراً نهضت ماجدة، ووضعت عينيها في عينيه وهي تمد يدها لتتناول العلبة، كانت تقصد إرباكه، وفعلاً تمّ لها ما أرادت، كان مرتبكاً وزادته نظرتها ارتباكاً، لكنها هي التي لم تنجُ من نظرتها تلك، فقد ارتدت سهامها عليها ولم تمس علي. عادت إلى منزلها مشوشةً مضطربة الفؤاد، وظل فؤادها على اضطرابه إلى أن أسكته اختناقها تحت المياه.

نشأت ماجدة في ظل علاقة "غامزة" بين والديها. كان هناك دوماً غمز وكلمات غير مفهومة، تلميحات وضحكات فاجرة في الليالي. لقد عاشت الأم تجاهد في عمل لا ينتهي مع أبنائها الكثر وماشيتها وأرضها، لكنها ما إن يعود الزوج بعد شهور من الغياب في المدينة، حتى تجد وقتاً لتكون الأنثى التي يريدها الأب، يعود الأب محملاً بهداياه لها، التي لا يخصص منها شيئاً لأولاده وبناته الكثر. كانت هدايا الأم معروفةً: بخورها وعودها، حناؤها ذو الجودة الجيدة، "الدورع" الشفافة والمطرزة، أو المخمل بنثاره اللامع، زيوت الشعر ذات الرائحة الجميلة. ولم تتذكر ماجدة قط وقتاً عاد فيه والدها إلى القرية، ولم يحضر هديةً مميزة لأمها.

ولم تحلم ماجدة بأكثر من ذلك، ولم تتجاوز تصوراتها عن الحب والعلاقة والزواج أكثر مما تراه بين والديها. كانت شغوفةً محبة مرهفة الروح، تسعى لتكون مرئيةً بأية طريقة، لتكون محبة ولتكون محبوبة ومعبودة. لديها حنين يغرقها لتجربة شيء ما، وكانت تحس أن جسدها يتشكل بالتوازي مع روحها، فهي تعي وتحس كل شيء. إنها تتعذب من رائحة المطر بعد الأرض، تؤذي قلبها أصوات أزواج "العنصرة" التي تصنع أعشاشها على أشجار السدر، ويظل الزوجان يحومان حول بعضهما، وتختلط ألوانهما الصفراء والزرقاء مع الأوراق شديدة الخضرة.

وغالباً ما كانت ماجدة تحس أن حواسها أقوى مما يجب، فهي تكاد تسمع حفيف الأعشاب إذا ما لامستها ريح خفيفة، وتكاد تحس احتكاك ريش العصافير المتغازلة، وتشتم عطر زهور أشجار "النشم" عن بعد كبير، وكانت أغاني أيوب طارش التي يجتاز صوتها الخفيض غرفة نوم والديها، في الليالي التي يكون فيها أبوها موجوداً، تزيح النوم عن عينيها، وتظل تفكر في الدلائل التي منحها إياها رجل المدينة بأهدابه الطويلة:

لقد ابتسم لها في كل مرة ابتسمت له.

لقد أهدى أخاها الأصغر كل كتبه.

لقد قبل في العيدين عزومة أبيها للغداء وصافحها مرة .

لقد قالت أمه إنه لا يخطط للبقاء في القرية، لكنه سيتزوج من القرية.

لكن الشاب لم يتعدَّ ما وراء تلك الإشارات، لم يقل شيئاً، لم يمنحها شيئاً أكيداً، وكانت تكبر وهو يسافر ويعود دون تقدم، وقررت أن تكون المبادِرة، اعترضت طريقه، بادرت بالسلام، ساعدت أمه في الحصاد، بعثت له بالضحكات، جعلت الجميع يتحدث عنهما كما لو أنها حقيقة مؤكدة.

لكنه ظل على حاله، لأنه لم يعرف، ولأنه كان أكثر جبناً من أن يقوم بأي مبادرة، أو يصدق أنه يمكن أن يكون محبوباً..

لم تدرك هي أن الجميع، كل الجميع ما عداه هو، كانوا يعرفون أنها تطارده لأنها تحبه. وكما يحدث في مجتمعاتنا، فإن الإشاعات التي تتعلق بالفتيات العازبات تسفر عن كارثة لا محالة، تبدأ من: "منحته ضحكتها وسلامها على الطريق العام"، وتتدحرج متضخمةً لتصل إلى: "كانا معاً لوحدهما تحت العريشة في الجبل، وقد رأتهما فلانة بنت فلان بأم عينيها".

وهذا ما حدث لماجدة سيئة الحظ. محاولاتها المستميتة للفت نظر الشاب الجامعي، عُرفت وجرى تداولها، فوصلت لخالتها وإخوتها أكبر بكثير من حجمها الأصلي، حبستها الخالة مع الأم في غرفة وبدأن استجوابها. بكت وأقسمت أغلظ الأيمان، لكنها لم تنكر أنها تحبه. وحين لم تنكر، لم تصدق المرأتان ما قيل لا من قبل ولا من بعد.

قررت الخالة أنه لا بد من فحص عذرية البنت: ماذا لو جاءها عريس ولم تكن فعلاً عذراء؟ هل تتذكرين فلانة بنت فلان وكيف أعادها عريسها في ليلة الزواج؟ بكت الفتاة حتى جفت المآقي، توسلت، لكن النسوة لم يستمعن إليها، كرهت محبتها وكرهت حياتها، ذكرى خالتها وهي بين ساقيها ويدها تعبث بفرجها تثير اشمئزازها وكراهيتها لأمها التي لم تعترض على حديث الخالة، وكان هناك شيء من أمل إلى أن صرّحت الخالة بأنها ستزوجها ابنها البدين.

الشقية، قبل كل ذلك وفي حينه، كانت تحلم باللحظة التي ستصل فيها أم الشاب الجامعي إلى منزلها، ستخبر أمها بأنها تريد ماجدة لابنها. انتظرت بصبر وبأمل، راقبت بشكل محموم الطريق من بيت الجبل إلى منزلها، وحين يئست، ذهبت إلى واحدة من بنات أخواته، طلبت منها صراحة أن تتحدث إلى خالها وتطلب منه المجيء إلى منزلها، وإلا، سيزوجونها لابن خالتها.

كانت متأكدة أنه يحبها..

ذهبت ابنة الأخت وقالت لأمها، وذهبت الأم واستفسرت من أمها، وانطلقت الأم الكبيرة، ولكزت ابنها وسألته ما الذي وعد به الفتاة؟

- أنا؟ اندهش "علي" ببراءة، أقسم لا شيء!

- صبية مهووسة.. علقت الأم الكبيرة، ثم قالت للابنة أن علي لا يريد الفتاة، وقالت الابنة للحفيدة:

- أخبريها أن خالك "علي" سيتزوج زميلته في الجامعة، وهي من المدينة ومتعلمة مثله..

ربما لو كانت الأم قالت لعلي الحكاية كلها، لكان علي تصرف بشكل مختلف..

ربما لو كانت الابنة لم تخبر الحفيدة، والحفيدة لم تنقل الكذبة كما هي لماجدة، لكانت ماجدة تأنت في قرارها.

ربما لو كانت ماجدة انتظرت قبل أن تطلب طلبها من الحفيدة لكان شيء ما تغير.

ربما لو لم تكن الشائعات تنتقل، والخالات يفحصن العذرية، ولو كان الإخوة أكثر حناناً وتفهماً وكانت الأمهات أقوى، ولو أخذت الجدات تهديدات الحفيدات بقتل أنفسهنَّ على

محمل الجد، ربما ما كانت ماجدة وصلت للنتيجة التي مفادها: ما جدوى حياتي إن لم تكن كما أحب ومع من أحببت؟ ما جدواها حياتي إن لم أكن أمتلكها؟ ما جدواها حياتي وهي في أيدي الآخرين؟

ذهبت ماجدة في اليوم التالي في الغبش الباكر إلى الخزان الكبير، وكما هي العادة بأن تجلب الماء صباحاً، ارتدت فستانها، ضمت شعرها تحت حجابها، نظرت لنفسها في المرآة، وهي توجه ضوء الكشاف نحو وجهها في الغرفة المظلمة، امتلأت عيناها بالدموع، لكنها عادت وتخلت عن فكرة البكاء، نظرت إلى أخواتها اللائي كنَّ نائمات، قبّلت الصغيرة منهنَّ، وكانت تحبها بشكل خاص، ومضت كما تمضي دوماً: بهدوء..

بكت في البداية خائفة ومترددة، لكنها أعادت ذكرى خالتها بين ساقيها، فاجتاحتها المهانة والغضب، وطأت بقدمها الدرجة الأولى فلسعتها برودة المياه، وحين وضعتها في الثانية كانت تعتقد أنها ستسيطر على توازنها وتمضي نزولاً في الدرجات المغمورة بالماء، لكن ذلك كان خطأ، فما إن وضعت قدمها الأخرى حتى انزلقت بفعل الطين الناعم وفقدت توازنها.

هوت نحو الخلف وقبل أن يرتطم رأسها بالدرجة غير المغمورة بالماء، كان جسدها يمضي نحو الأمام بسبب جاذبية المياه، هوت ببطء متخبطةً بوهن، كان المكان مظلماً بارداً ومرعباً، تداخلت الأفكار والذكريات في رأسها، رأت نفسها صغيرة، ورأت أباها وأختها الصغيرة وجدتها، لكنها لم ترَ "علي".

في لحظاتها الأخيرة، أحست ماجدة بالشفقة على نفسها، أحست بالأسى العميق، ها هي تموت شابةً صغيرة، لم يتحقق شيء من أحلامها. لقد اتخذت قرارها ولم يعد هناك من رجوع، وفي لحظة أخيرة، وبشكل غير واضح في اللاوعي تمنّت ماجدة لعلي أن يشقى، وألا يسعد..